حُفِظت القضية

باتريك أورشادنيك

ترجمة : د. عمرو الشطوري

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(حُفظت القضية)

لـ «باتريك أورشادنيك»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

ماجدة علي

حفظت القضية

باتريك أورشادنيك

ترجمة

د. عمرو الشطوري

حفظت القضية

تأليف: باتريك أورشادنيك

ترجمة: د. عمرو الشطوري

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع: 17580/2017

الترقيم الدولي: 9789773193652

الغلاف: غدير الوحش تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: إسلام منتصر

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع القصر العيني 11451 - القاهرة

ت 27954529 - 27921943

فاكس27947566

www.alarabipublishing.com

(1)

1. e4 e5 2. f4 exf4 3. Sc4 d6 4. Jf3 Sg4 5. 0–0 Dd7 6. d4 g5 7. c3 Jc6 8. Da4 Se7 9. b4 h5 10. b5 Jd8 11. Jbd2 Jh6 12. e5 Je6 13. Sa3 Jf5 14. d5 Jeg7 15. Vfe1 Je3 16. Db3 Vh6 17. exd6 cxd6 18. Je4 Sxf3 19. gxf3 g4 20. b6 a6 21. Se2 Jgf5 22. Db2 f6 23. c4 Kf7 24. Vac1 Vg8 25. Kh1 h4 26. fxg4 Jg3+ 27. hxg3 hxg3+ 28. Kg1 Vgh8 29. Sf3 Dxg4[1)]

e4 e5 2. f4 exf4 3. Sc4 d6 4. Jf3 Sg4 5. 0-0 Dd7 6. d4 g5 7. c3 Jc6.1 8. Da4 Se7 9. b4 h5 10. b5 Jd8 11

Jbd2 Jh6 12. e5 Je6 13. Sa3 Jf5 14. d5 Jeg7 15. Vfe1 Je3 16. Db3 Vh6 17. exd6 cxd6 18. Je4 Sxf3 19. gxf3 g4 20. b6 a6 21. Se2 Jgf5 .22. Db2 f6 23. c4 Kf7 24

Vac1 Vg8 25. Kh1 h4 26. fxg4 Jg3+ 27. hxg3 hxg3+ 28. Kg1 Vgh8 29 ([1])

(2)

إنه فصل الصيف، الشمس تبتسم والأشجار تشتد قوتها في محاولة منها للتخلص من الأكسجين، كانت العصافير تفر مذعورة من أعلى قممها، بينما سقطت فضلات الحمام الجافة من أعلى الواجهة المبنية على الطراز الباروكي، كذلك فاحت رائحة كريهة من إحدى البلاعات. كان «فيكتور دك» يجلس على أريكة في مدخل الحديقة يدفئ عظامه العجوز التي أتعبتها الحياة. تأهب ليضرب بعصاه خنفساء كانت تتحرك بالقرب منه، إنها من نوع الخنفساء المنقطة. لكنه أدرك أنه يجب أن يفعل ذلك بخفة لكي لا يؤلمه ظهره إذا قام بحركة عنيفة. أسند العصا من منتصفه بيده اليسرى، وأمسك بها بيده اليمنى استعدادًا لضرب الخنفساء، ولكن في هذه اللحظة، وقف أمامه شخص ما في سن الشباب. كانت أنثى ترتدي تنورة قصيرة وبلوزة فضفاضة مزركشة. لم تكن ترتدي حمالة صدر، وكان وجهها شديد الحمرة بسبب سيرها بخطوات سريعة.

قالت الفتاة:

- عذرًا، كيف أصل إلى أكاديمية الفنون الجميلة؟

كانت تمسك تحت ذراعها لوحة كبيرة خضراء مربوطة في ستة أماكن استراتيجية برباط رمادي.

رفع «دك» عينيه وتفحص جسدها، وعندما أيقن أنها جميلة، حاول تغيير تعبيرات وجهه ليعيد إليها حكمة الشيوخ الدافئة. طأطأ رأسه إلى الأرض وقال:

- لم أسمع.

رغم أنه سمع كل كلمة بوضوح شديد.

فكررت الفتاة سؤالها:

- كيف يمكن أن أصل إلى أكاديمية الفنون الجميلة؟

فقال «دك» بخبث:

- ماذا ستفعل فتاة رائعة الجمال مثلكِ في أكاديمية الفنون الجميلة؟

ابتسمت الفتاة بتردد. نظر إليها «دك» بتمعن في محاولة منه لتذكر الأيام الخوالي.

انتظرته الفتاة قليلًا ثم أشارت بيدها وقالت:

- هل هي من هنا؟

فقال «دك»:

- ماذا تقولين؟ لا بد وأن تعودي إلى شارع «روزفلت» ثم تنحرفين يسارًا ثم.. انتظري.. ثالث شارع يمينًا.

فقالت الفتاة بتردد:

- كنت أعتقد أنها في مكان ما هنا.

فابتسم «دك» ابتسامة عريضة، وقال:

- إنني أسكن هنا يا آنسة منذ خمسة وخمسين عامًا، ربما لم أعد أستطيع السير، ولكن ذاكرتي والحمد لله ما زالت تسعفني.

ثم قرع بإصبعه على مقبض العصا الخشبي منعًا للحسد.

- في شارع «روزفلت»، ستنحرفين يسارًا ثم تأخذين ثالث شارع جهة اليمين.

فقالت الفتاة:

- أشكرك شكرًا جزيلًا.

وعادت في اتجاه العنوان المذكور.

راقبها «دك» للحظات ثم أدار نظره عنها، وأخذ يعبث بعصاه في الأرض، كانت الخنفساء قد ذهبت إلى حال سبيلها.

قال «دك» متسائلًا، ربما كان بوسعها أن ترفع تنورتها للحظات قليلة، ما كان سيضرها ذلك في شيء فلا يوجد أحد هنا؟ «كان بإمكانها أن تريني فرجها، وبعدها كنت سأرشدها إلى طريق الأكاديمية، فربما هي لا ترتدي حتى سروالًا داخليًّا. ما كان هذا سيضيرها في شيء. حسنًا، ثالث شارع ناحية اليمين».

لم يكن «دك» يحمل في داخله أي كراهية لهذه الخنافس، بل على العكس، فقد قام في شبابه في وقت ما من القرن الماضي بتربية مجموعة منها. كان يذهب كل أحد لجمعها من الحدائق ممسكًا بملقاط ووسادة صغيرة من النوع الذي يستخدمه الخياطون ودبابيس مختلفة الأحجام وزجاجة حبر فارغة لها غطاء متحرك.

كانت الخنافس العادية والخنافس طويلة القرون تُشكل معظم مجموعته.

لم يكن «دك» يُخفي كراهيته حتى تجاه طالبات كلية الفنون الجميلة، كان كارهًا لكل الناس بصفة عامة وكلما كانوا صغارًا في السن، زاد هذا من استيائه، فهناك قاعدة بسيطة تقول إنه كلما صغر عمر الإنسان، كانت حركته ووجوده ملموسًا وظاهرًا في هذا العالم. لم يكن كبار السن أفضل حظًا بالنسبة له، ولكن كانوا يتمتعون بميزة واحدة تشعره بالراحة، وهي أن وجودهم في هذا العالم لن يستمر طويلًا.

- أترى يا سيد «دك»؟ إن الجو جميل. أليس كذلك؟ كيف حالك؟

جلستْ بجوار «دك» بصعوبة سيدةٌ مسنة سمينة ذات وجنتين ورديتين مرتدية وشاحًا على رأسها – كان ذلك شيئًا نادر الحدوث في وقتنا هذا – وكانت تمسك بكيس بلاستيكي نصفه فارغ أو نصفه ممتلئ.

فأجاب «دك» بشكل غير ملحوظ:

- أنتِ تعرفين حالي يا سيدة «بروخازكوفا».

- هل سمعت هذا الخبر؟ يقولون إن سيارة قد صدمت السيدة «هوراكوفا».

- ياه، هل إصابتها خطيرة؟

- خطيرة أم بسيطة المهم أنها ماتت، ماتت ولن تعود للحياة مرة أخرى، وهناك رواية أخرى تقول إنها تعثرت في المنزل ثم فتحت الباب فسقط عليها. لم تستطع المسكينة أن تتنفس وكانت عيناها مفتوحتين على مصراعيهما.

لا يستطيع «دك» تخيل ما قد يحدث لأي أحد بعد الموت، ففي كل لحظة يأتي إلى عالمنا نوع جديد من الكائنات الحية.

ثم قال:

- «إن عيني المتوفى تُزيد النجوم لمعانًا» - سفر الأمثال 125.8.

كان «دك» غالبًا ما يردد عبارات معينة من جعبته الخاصة، ولكنه ينسبها إلى مصادر مزيفة أو إلى مصادر تكون عادة من التوراة، فقد أدرك منذ وقت طويل أنه من أبرز مظاهر الذكاء المطلق هو ترديد ما قاله الآخرون في وقت ما. فقد كان في الماضي في الفترة التي كان يجمع بها الخنافس مع أصدقائه يضيف إلى عباراته وأقواله المأثورة.. «كما أردد أنا دائمًا»، لكنه لم يحصل على أي رد فعل لما يقوله سوى مقابلة الآخرين لذلك بابتسامة خجولة.

ذات مرة، أضاف لما قاله اسم الكتاب الذي استشهد به فقال: «سفر راعوث 6:4»، وهنا ظهرت نظرات الدهشة على الجميع، فقد لمعت عيون النساء بنظرات الإعجاب، بينما امتلأت نظرات الرجال بالحسد. ومنذ هذا الوقت، أصبح يفعل هذا باستمرار. فعند مغادرته للبار، ينهض من كرسيه ويقول: «الليل هو نذير الفجر. سفر اللاويين 2.10». «احفر في الرمال وستجد نفسك هناك. الواعظ 17.5»، قال هذا لزميلته في العمل والتي كان يريد أن يوقع بها. «الأب ينادي بصوت قوي ويا للأسف فالابن لا يسمع. جلجامش الأغنية الثالثة» قال هذا مهدئًا أحد جيرانه عندما كان يشتكي من تصرفات ابنه المراهق.

وحتى في هذه المرة، لم يفوت الفرصة، فقد نظرت السيدة «بروخازكوفا» بإعجاب إلى «دك» وقالت:

- أنتَ دائمًا هكذا. يمكنك أن تقول كل شيء.

ثم صححت ما قالته:

- تلخص كل شيء. بجدارة.

وأضافت:

- أول أمس فقط كنت أتحدث عن ذلك مع «يارا».. زوجي، أنت تعرفه. قلنا إن السيد «دك» لديه القدرة على قول كل شيء وهو يعرف كل شيء.

فقال «دك» بشرود وبقلة أدب إلى حدٍ ما:

- حقًا؟

لماذا يتعامل مع السيدة «بروخازكوفا» بهذا الشكل غير اللائق؟ يكفي نظرته لها فقط. قال:

- «يارا»، يمكن أن يكون هناك تفاهم بينك وبين ابننا «تديك». لديه الآن عمله الخاص، فهو يقوم بتأجير القوارب بالقرب من كوبري الثورة وهو مثقف إلى درجة كبيرة، ولديه الكثير من المعلومات، وخاصة عن التاريخ، فهو يعرف الكثير عن المعارك والحروب.. أين وقعت وما الذي تم التوقيع عليه من معاهدات واتفاقيات وخلافه؟ من يعرف، ربما لو لم يبدأ في عمله الخاص هذا لكان الآن مدرسًا للتاريخ في المرحلة الثانوية أو في الجامعة.

في تلك اللحظة، جلس رجل مسن آخر إلى الأريكة، كان يرتدي قبعة – من النادر رؤيتها اليوم – ويمسك بيده كيس بلاستيكي نصف ممتلئ.

فقال الرجل العجوز ذو القبعة بصوت يشبه الزقزقة:

- يا له من جو جميل، كيف حالك؟

اكفهر وجه «دك» وقال لنفسه إذا استمر الوضع على هذا الحال فسوف تتحول أريكتي المفضلة إلى رابطة لدور المسنين.

ألقى العجوز بنفسه بجوار السيدة «بروخازكوفا» فتحركت في اتجاه «دك» الذي تزحزح بعيدًا عنها بشكل غير ملحوظ.

فقال في نفسه: «لقد أصبحت مستعمرة متكاملة للغربان».

- هل تعلم أن السيدة «هوراكوفا» قد تعرضت لحادث سيارة؟

- لقد كنت أتحدث مع السيد «دك» عن هذا الآن، مسكينة هذه السيدة، ويقال أيضًا إنها تعثرت في المنزل وبقيت عيناها مفتوحتين على مصراعيهما. لقد قال السيد «دك» إن عيون الموتى تزيد النجوم بريقًا.

فقال الرجل ذو القبعة:

- هممم.

دون ذكر المصدر يصبح هذا الكلام بلا قيمة.

(3)

لكن الأسوأ هم المراهقون الذين كانوا في الماضي يُدعون بالشباب طليعة المجتمع الذين سيسيرون على خطى آبائهم الذين جاءوا بهم من خفايا العلاقات الغرامية.

ومع تغير نظام الحكم، تم استبدال كلمة الشباب بالمصطلح الذي يعبّر عن قلة الالتزام وعن مجاراة العصر وهو مصطلح «العيال الروشة» والتي تعبّر بشكل أفضل عن هذا العصر. «هل تشجع العيال الروشة؟» لا. «هل تحب هؤلاء الشباب؟» لا. «هل في نفسكم شيء منهم؟» نعم!!!!!

عندما كان «دك» في المدرسة، كان يطلق مصطلح «الشاب الروش» على المراهق الذي كان ينقض عليك على سلم المدرسة بلا أي سبب ويمسك بجلد رقبتك كما يُمسك الأرنب؛ ليحاول أن يأخذ منك الكرونات الخمس التي حصلت عليها في الصباح من والدتك لتشتري بها قطعة كرواسون.

عندما وصل «دك» إلى فئة الشباب، كان هناك شباب فوقه أعلى سلطة، كانوا يضربونه ويتحرشون بالفتيات الصغيرات من مصنع النسيج المجاور، وأثناء فعلهم هذا، كانوا يقومون بإخراج الرؤوس السوداء الموجودة بأنوفهم بإصبعهم السبابة. وبدون أن ننسى أن «دك» كان ممتازًا في عملية التنظيف تلك– ليس لأنه كانت له حرية الاختيار – إلا أنه يتذكر الأمر الآن بمزيجٍ من القرف وعدم التصديق، كان يقوم بضرب التلاميذ الأصغر سنًا على رؤوسهم، ويحشر إصبعه الإبهام في أزوارهم، دون أن يفعلوا أي شيء لمضايقته، وكان يتحرش بالفتيات الصغيرات العاملات في مصنع النسيج المجاور. وكان يخرج الرؤوس السوداء من أنفه، ويحمل في جيب بنطلونه الخلفي مشط مليء بالزيت.

المراهقون، المراهقون، المراهقون. تلك النظرة البلهاء والملامح المتحجرة، قناعة القطيع بتفرد الذات. هذه الحماقة المنبثقة من أعماق يرقات ما قبل التاريخ، إحساسهم يشبه إحساس الديناصورات بذاتها. يظهر عندما تذكر أمامه شعار النازية «المجد للمنتصرين» أو أن تقول «المجد للشيوعية» أو شعار «فكر بشكل مختلف».

وعندما ينجح هؤلاء الجهلة في ممارسة الجنس، فإنهم يرغبون في إبلاغ العالم بقرب وصولهم إلى شهوة الجماع، بينما يقوم الشخص العادي بإغلاق النافذة حتى في أشد أيام الصيف حرارة.

(4)

كانت أريكة «دك» توجد في ميدان يشبه ميادين القرى الريفية، على أحد جوانبه، تقع كنيسة متواضعة بُنيت على الطراز الباروكي، وعلى الجانب الآخر، مبنى كان يُستعمل في الماضي كإسطبلات للخيل، أما الآن، فقد تحول إلى متحف «أندي فارهول».

كان مبنى إسطبلات الخيل جزءًا من قصر للصيد تحول في الوقت الراهن إلى أكاديمية الفنون الجميلة، كان يوجد به في فترة النظام السابق متحف كفاح العمال. كانت الأكاديمية مختفية خلف أشجار الممر الأول من الحديقة، والتي تشغل تقريبًا رُبع مساحة الحي. كان الحي، الذي يشكل سكان البلدة الأصليين غالبية المقيمين به، يتميز بالهدوء الذي يصبح مع الوقت من الأشياء النادرة في هذه الألفية الجديدة منذ أن بدأ هؤلاء الحمقى يملؤون أوروبا. أمَّا النقطة السوداء الوحيدة في هذه البلدة الريفية فكانت بعض المساكن التي يقطنها الغجر الذين يتحدثون لغة غريبة غير مفهومة، الأمر الذي أفسد النظام الهادئ لحياة المواطنين من غير الغجر من البيض، وقد جعلهم هذا الاختلاف اللغوي يشعرون بالاستياء، وبأن هذا العالم إما هو كبير جدًا أو صغير جدًا.

كانت هناك مقبرة صغيرة تمتد على جانب الحديقة، ومن الغريب أنها صمدت أمام حماس الشيوعيين في إزالة كل شيء، وقاومت أيضًا شغف البناء الذي ساد في الفترة الرأسمالية المبكرة. ولكن منذ فترة، يُشاع أن هناك شركة كندية عرضت أن تقوم بتشييد مبنى من ثلاثة طوابق وتراس، وسيشيد البناء على أعمدة، ولذلك فلن تُمس هذه المقبرة؛ لأن احترام الموتى هو شيء بديهي من قِبل رجال الأعمال الكنديين. سيتم إنشاء سوبر ماركت أو متجر كبير في الطابقين الأول والثاني، أمَّا الطابق الثالث فسيخصص للمكاتب ومتجر للورد وحانوتي، أمَّا التراس فسيتم زرعها بأشجار الزيزفون والإيلنطس، والتي سيتمكن المواطنون من الجلوس في ظلها لمشاهدة سطح الكنيسة. كما سيكون هناك ركن للأطفال به أماكن للتسلق وحفرة رملية، ذلك الركن سيكون رمزًا ممتازًا وذا دلالة متعلقة بالمقبرة: العب العب، فيومًا ما ستموت.

تعهد الكنديون أيضًا بأنهم سيرممون هذه المقبرة المهجورة وسيقومون بتبديل الصلبان وشواهد القبور المحطمة بأخرى جديدة وسيفعلون ما بوسعهم لتكريم الموتى وإرضاء سكان «براج» المحليين.

كانت هناك عدة عبارات قد كُتبت على سور المقبرة. بعض الجمل تجعلك تتنبأ بما تحتويه («ميم» يحب «جيم» فلتذهب إلى الجحيم يا «رومان» ومن يقرأ ذلك فهو حيوان)، وقد تم إلحاق تلك العبارات بعبارتين أخريين أكثر طموحًا؛ إحداهما تعتمد على مذهب التشكيك الديكارتي (إذا كانت «ليدا» عاهرة و«ديفيد» يحب «ليدا» فهل «ديفيد» عاهر أيضًا؟). أمَّا الأخرى فهي تعبّر عن التفاؤل الحذر (إذا كان هناك من يقرأ لـ «بول فرلين» فليكتب هنا رقم تليفونه أو عنوان بريده الإلكتروني).

من حين لآخر، كان يظهر في الساحة أحد السائحين المتعطشين لفن البوب ولفناني الطليعة، وكان هذا الأمر نادر الحدوث إلى حد ما. كان المتحف يقف متواريًا عن الطرق المعتادة التي يسلكها

السائحون، وكان قليل جدًا من الزائرين الأجانب من يعرفون حقيقة أن «أندي وارهول» كان في الأصل تشيكيًا - أو سلوفاكيًّا لا فرق - أو على الأقل أن «وارهول» وُلد في «بيتسبرج». معظم الناس الذين برزوا في مكان ما من هذا العالم كانوا من أصل تشيكي: «سيجموند فرويد»، «مادلين أولبرايت» وآخرون. وأيضًا سلوفاكيا، هذا الجزء الذي انفصل عنا لديها أيضًا أناس على القدر نفسه من الشهرة تقريبًا مثل التشيك، وقد كان «أندري وارهول» واحدًا منهم.

كانت الحديقة صاحبة فضل على هذا الحي، فقد شكلت حوله إطارًا هادئًا، فهي لم تكن مناسبة لممارسة الدعارة، ولم تكن ملائمة لتجار المخدرات؛ لأنها بعيدة عن وسط المدينة. ولولا وجود هؤلاء المجانين في ساعات الصباح وقبل الغروب، والذين يزداد عددهم يومًا بعد يوم لممارسة نشاط يسمى «الجو كن»، والذي حل محل التمارين الرياضة التي كانت تُمارس في السابق عند نافذة مفتوحة تطل على المصنع، لما رأيت أحدًا هنا، وعند التفكير بشكل عابر في الأمر، فإننا سنتأكد من أن عجلة التاريخ تواصل دورانها هنا أيضًا.

ففي المكان الذي كان يقف به في الماضي تمثال الجنرال «ستالين» ضحية المؤتمر العام العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي، يوجد الآن بندول عملاق يصور حركة الزمن في خضوع تام وبتكافؤ بين الميكانيكا والرمزية. وهو الدليل الوحيد الواضح على التطور التاريخي في منطقة مرتفعة اصطناعيًّا في جانب الحديقة. فخلال العام قبل الأخير من القرن الماضي الذي كان الإعلام يروج له بأنه سيكون الأخير، تم تثبيت مجرى فسفوري تحت البندول تتساقط منه الثواني والتي كانت تفصل المدينة عن نهاية هذا القرن المزعوم. فبين الأول من يناير والآخر من ديسمبر عام 1999، ضاعت 31,5 ثانية من حياة النصب التذكاري للجنرال «ستالين». أمَّا منذ نهاية القرن المزعوم، فقد ضاعت 11 ثانية أخرى، وجميعهم تركوا الواقع الصادم نفسه. أمَّا اليوم أيها الأصدقاء فيمكننا التحدث عن هذا القرن الماضي بلا تحيز وبتصورٍ واضحٍ وبعقل بارد. فقد أخذ الجنرال مكانه بجوار «بريكليس» وأخذت القنبلة النووية مكانها بجوار المدافع الأشورية الخشبية التي شاركت في معركة «كريس»، وذلك في الباب الذي يتحدث عن تطور التكنولوجيا العسكرية.

كان «دك» يفكر في هذه الأمور ويقلبها يمينًا ويسارًا، لا يعني هذا أن تساقط هذه الثواني في هذا القرن الجديد سيكون أكثر ذكاءً لا سمح الله، ولكن ربما يكون هو القرن الأخير. فمن غير المعقول أن تستمر هذه التجربة إلى ما لا نهاية. ويدرك «دك»- بصفته طالبًا سابقًا بكلية العلوم وخبيرًا لاحقًا في خنافس الأرض - أنه توجد بدائل في الطبيعة، ربما تكون الكلمة للنمل أو لقناديل البحر، وعندها سيكون هذا شيئًا مزلزلًا، ولكن حتى الآن لا يوجد دليل على هذا، فعلى الرغم من تحذيرات علماء البيئة من ذوبان الأنهار الجليدية وانخفاض عدد الحيوانات المنوية في أجسام المخلوقات المتحضرة، فحتى الآن لا توجد أي أدلة على أن هذه علامات على اقتراب النهاية، وحتى ولو كانت النهاية بعد مئة عام، فمئة عام لا تزال فترة طويلة، وكذلك الألف عام. ولكن حتى الآن لا يوجد ما يشير إلى ذلك، فما زالت هذه الحزمة القديمة المثيرة للاشمئزاز من الحروب والمجاعات والقتلة المعتوهين والمعوقين المشوهين هي المسيطرة، ولكن قناديل البحر ليست على هذا القدر من الغباء كما يبدو لنا، فرغبتهم في السلطة كبيرة جدًا، فيكفي النظر إليها لنرى كيف تبتلع بسعادة ووعي كل ما يقف في طريقها.

(5)

انظروا، لقد جاء شخص آخر، رجل قوي البنية يتمتع بصحة جيدة، واحد من هؤلاء الحمقى الذين يخشاهم المرض وكان يُمسك بيده كيسًا بلاستيكيًّا. صرخ قائلًا:

- إنها جلسة مريحة، أليس كذلك؟

- إنه السيد «كربس».

وقف منتصبًا أمام الأريكة وقال:

- ما الأمر أيها المسنون، ألا تفسحون لي مكانًا فأنا واحد منكم؟

التصقت السيدة «بروخازكوفا» بـ «دك» وهي تأمل أن يتحرك السيد «براجاك» – الرجل ذو القبعة – إلى الجهة الأخرى ومن ثم تجد نفسها بين السيد «دك» والسيد «كربس»، فقد كان السيد «دك» والسيد «كربس» المفضلين لدى السيدة «بروخازكوفا». فقد كانت السيدة «بروخازكوفا» تقدر في السيد «دك» ثقافته على وجه الخصوص، أمَّا بالنسبة للسيد «كربس»، فقد كانت صديقته في الماضي.

ونالت ما تريده، ولكن كاد السيد «براجاك» أن يسقط من على الأريكة عندما انحشر السيد «كربس» العملاق بينه وبين السيدة «بروخازكوفا».

قال السيد «كربس»:

- تلك هي الحياة! إنها كالمصفاة يسقط منها كل شيء، وإذا قمت بإصلاحها لا تسقط شيئًا.. ها ها.

فقالت السيدة «بروخازكوفا» كأن فكرة قد لاحت لها:

- كنت أقول ذلك دائمًا.

ثم قالت:

- أنت رجل محب للمزاح يا سيد «كربس»، ولكن هناك سيارة صدمت السيدة «هوراكوفا».

فقال السيد «كربس» متسائلًا وكأنه سعد بهذا الخبر:

- وهل ماتت؟

- السيد «دك» يقول إنها قد انهارت على الأرض في منزلها، وبقيت عيناها مفتوحتين على مصراعيهما كالنجوم.

- كالنجوم؟

- عيناها كانتا تلمعان، لا بد أن هذا كان من تأثير الصدمة، فرأسها كانت غارقة تمامًا في الدماء.

- «لن تهزم الحائط برأسك ولكن تستطيع أن تجرحه». هوووه.

- دعك من هذا يا سيد «كربس».

(6)

لم تمت السيدة «هوراكوفا» بسبب حادث السيارة، فالسيارة بريئة من هذا، ولكنها بالفعل كادت أن تصطدم بها عند ناصية شارع «لومنيتسكا»، ولكن السيدة «هوراكوفا» سقطت على الأرض، وجُرحت ركبتها وتمزقت جواربها، ولكنها وصلت إلى المنزل وهي تسب وتعرج ثم قامت بفتح الغاز وفتحت الفرن وحشرت رأسها داخله. يُقال إن النساء وخاصة في السن المتقدمة نادرًا ما يميلون إلى الانتحار، وإذا أردن ذلك، فإنهن يفكرن طويلًا في هذا الأمر، ويخترن طرقًا أقل تطرفًا من الرجال. ولكن الإحصائيات لا تستطيع أن تبين حياة الأفراد بشكل كامل، فالسيدة «هوراكوفا» من هذا المنظور قد تجاوزت هذا التصنيف القائم على الجنس. لم تستطع التحمل أكثر من ذلك، فاض بها الكيل من بناتها وأحفادها ومن ترددها على الأطباء، ومن هذه السيدة الشقراء في السوبر ماركت ومن السائقين الذين لا يحترمون أماكن عبور المشاة، وحتى من السيد «دك» الذي كانت تتحدث معه في كل شيء وكان يعرف كل شيء، فقد كانا يجلسان معًا على الأريكة أو يتمشيان معًا في الحديقة عندما يكون الجو لطيفًا، وقد دعته عدة مرات لتناول الغداء معها في يوم الأحد، فهي أرملة وهو أرمل، هي بعد وفاة زوجها «توندا» وهو بعد وفاة زوجته «أنشكا» -أنتم بالطبع تعرفون هذا الوضع- هل السيدة «هوراكوفا» كانت تضحك وهي تُدخل رأسها في الفرن من أن السيد «دك» لن يجد من بعدها من يجلس معه على الأريكة؟

أول ما لاحظه رجال الإطفاء - الذين وصلوا إلى الشقة متأخرين بضع ساعات، وعندما أصبحت رائحة الغاز منتشرة في كل الطابق الفوضى التي عمت غرفة النوم وغرفة المعيشة، الأمر الذي يتناقض بقوة مع المطبخ المنظم شديد النظافة. فهناك تخيل سائد بأن مساكن السيدات المتقدمات في السن بصفة عامة شديدة التنظيم. فحتى في هذه الحالة، لم تتوافق حالة السيدة «هوراكوفا» مع ما هو مفترض عن جنسها، فمن الناحية الأنثروبولوجية، فموقف المرأة من الفوضى هو موقف وقائي، فالنساء يقمن بالتنظيف لتجنب الحاجة إلى التنظيف، ربما يكون هذا المنطق قابلًا للنقاش ولكن له نتائجه، ولكن موقف الرجال ليس وقائيًّا بل موقف علاجيّ، فهم يقومون بالتنظيف فقط عندما يجدون أنفسهم معرضين للتهديد المباشر من هذه الفوضى.

يبدو أن السيدة «هوراكوفا» كانت من جنس يقف بين الجنسين السابقين، جنس ثالث لم تقم العلوم الاجتماعية بدراسته حتى الآن.

سنرى لاحقًا ما إذا كان عدم الدقة ذلك في الإحصائيات سيؤثر على أحداث روايتنا وعلى مصائر أبطال الرواية الآخرين أم لا؟ ولكن على أي حال، فقد دفع هذا رجال الإطفاء بأن يقوموا باستدعاء رجال المباحث إلى شقة السيدة «هوراكوفا». ليس مهمًا ما الذي سيفعلونه هناك، ولكن هذا بالطبع سيمكننا من استدعاء الإثارة المطلوبة للرواية وتقوية الخط الدرامي لها. لقد سُرقت القضية من رجال الإطفاء، ولكن بالطبع لم تُسرق من القراء.

كان هناك شيء آخر شد انتباههم وهو وجود خصلات شعر رطبة وشعيرات صغيرة من جسم بشري وبعض الصابون اللزج في البانيو. لمن هذا الشعر؟ ومن الذي كان يغتسل في هذا البانيو؟ تركوا هذا

الأمر للمتخصصين.

(7)

كانت السيدة «بروخازكوفا» في غاية الاستياء وهي تُشيح بيدها لتهش عنها نحلة ظنت خطأ أن شعرها المتشابك هو نوع من أنواع الزهور الغريبة. ثم قالت شاكية:

- إن عدد الزهور هذا العام هو السبب في كثرة الذباب.

قال السيد «براجاك» وهو يعتدل في جلسته على حافة الأريكة:

- أتعرفون ماذا قال «أينشتاين»؟

كان يشعر أنه تم تنحيته جانبًا، وأنه إذا أراد أن يظل عضوًا كاملَ العضوية في هذا الفريق، فعليه أن يقول شيئًا ذكيًّا.

- لو اختفى النحل، فستنتهي البشرية خلال خمسة أعوام.

فقال السيد «كربس» ضاحكًا:

- إذًا فقد كان عليه أن يفكر كيف ستعيش البشرية من دون نحل بدلًا من اختراعه للقنبلة الذرية، أليس كذلك؟

فقال السيد «براجاك» وهو مصمم على رأيه:

- لقد سمعت هذا في الراديو.

قالت السيدة «بروخازكوفا»:

- ذات مرة لدغتني نحلة، يُقال إن النحل لا يلدغ، لا إنه يفعل، ربما لا تصدقون، لقد تورمت يدي.

- لو كنت نحلة للدغتكِ في مكان آخر.. ها ها.

- كف عن هذا يا سيد «كربس».

- الأمر يتعلق بحبوب اللقاح، وعدم وجود النحل معناه اختفاء الزهور والأشجار والأكسجين، فمن كان سيقوم بهذه المهمة بنقل حبوب اللقاح.

- إذا لم يكن النحل موجودًا، فمن كان سينقله؟ هل كان سينقله الفيتناميون؟ ها ها ها.

صمت السيد «براجاك» مستاءً، فاستغلت السيدة «بروخازكوفا» هذه الفرصة، واستدارت إلى «دك» وسألته:

- لماذا لا تقول شيئًا يا سيد «دك»؟

قال «دك» بحكمة:

- الصمت شكل من أشكال الحوار.

ارتبكت السيدة «بروخازكوفا». فأضاف بإصرار:

- والعكس صحيح.

- والعكس صحيح؟

كادت السيدة «بروخازكوفا» أن تصاب بالدوار ثم سألته بتشككٍ:

- أتعتقد ذلك؟

- أنا أعتقد حتى عندما لا أريد، فهذا الأمر أقوى مني.

(8)

كان «وليام لبيدا» يجلس في مكتبه بقسم الشرطة في شارع «ليبوفا»، ويقرأ في «قاموس مفردات الطبقات الدنيا في المجتمع»؛ لكي يتعلم لغة الشارع التي لم يتعرف عليها بسبب نشأته البرجوازية. كان يشعر بخيبة الأمل من قراءته لهذا القاموس؛ فقد بدا له سطحيًا وغير موثق، ولكن مديره هو من نصحه بقراءة هذا الكتاب الذي كانت قد أهدته إليه حبيبته في عيد ميلاده، فأصبح على «لبيدا» التزام وظيفيّ واجتماعيّ بأن يقرأ هذا الكتاب حتى نهايته.

ولأن قسم الشرطة يقع في حي هادئ وبين مواطنين مسالمين في شارع «ليبوفا»، فقد كان عبارة عن مكتب إداري هادئ أيضًا، فالغالبية العظمى من القضايا التي يحقق بها قسم الشرطة الكائن في شارع «ليبوفا» هي قضايا تفتقر إلى الطابع الدرامي، فهي عبارة عن حوادث نشل لحافظات نقود أو سرقة حقائب السيدات أو الشمسيات أو سرقة بضائع من المحلات التجارية أو سرقة علامات المرور من التقاطعات أو سرقة مواسير السقالات التي تُستخدم لترميم واجهات المباني أو سرقة المقاعد من متنزه المدينة أو سرقة البنطلونات الجينز من على أحبال الغسيل في المنازل القديمة، وأيضًا سرقة مساحات السيارات وإطاراتها. ونادرًا ما كانت تحدث حادثة تستحق اتخاذ إجراء أكثر ديناميكية، كأن تتحرك سيارة الشرطة مثلًا مطلقة أنوارها وسرينتها لإلقاء القبض على أحد المتحرشين وهو يحاول مضايقة طالبات المدارس في وقت الذروة أو قيام أحد السكرانين بتهديد المارة بطوبة سرقها من مكانٍ ما. أما إذا حدثت جريمة في الحي، فإنها تكون من نوع قيام زوج بضرب رأس زوجته بأرضية المطبخ وهو لا يعلم مدى ضعف جمجمتها، هذا الصندوق الذي يحفظ المركز العصبي لدى المرأة، أو قيام أحد المغفلين بإطلاق النار على صديقه عندما أراد أن يتباهى أمامه ببندقيته الجديدة. ومن وقت لآخر، كان بعض الحمقى يقومون بطعن أحد الغجر أو يقوم الغجر بطعن أحد الحمقى، ولكن في هذه الحالة، لم يكن يُوجد ما يستدعي التحقيق، فكان يكفي استدعاء سيارة الإسعاف وفتح الكمبيوتر واختيار وظيفة «حفظ» من القائمة ثم طباعة ثلاث نسخ على الطابعة العتيقة القابعة في الممر المؤدي إلى مكتب «وليام لبيدا».

تولى الملازم «لبيدا» في قسم شرطة «ليبوفا» منصب كبير المفتشين وممثل فرقة الأمن، وهو الأمر الذي جلب له، بالإضافة إلى عمله الأصلي، أولًا: ما يسمى بـ «المطالب الطبيعية» وفقًا للغة رجال الشرطة، فإن هذا الأمر يتيح له ارتداء الزي الرسمي أو أي زي مناسب مع تعديل هذا الزي أو أجزاء منه وفقًا لما تقتضيه ظروف العمل. ثانيًا: «الامتيازات الخاصة» أو (ثانيًا أ): استخدام إحدى المحطات التليفونية المشتركة للإخطار بالمهام المراد تنفيذها، (ثانيًا ب): استخدام سيارات العمل لأداء العمل ولتكون تحت تصرفه الشخصي بشكل مستمر؛ لتضمن له التحرك الفوري في أي وقت.

علاوة على ذلك، فقد كان «لبيدا» يقوم بوظيفة أخرى تسمى «العميل السري» وذلك مقابل 1810 كرونات تشيكية شهريًّا، هذا العمل الزائد كان يجعل هذا الشخص المتواضع والحساس يتجول في المنطقة المحيطة ليستمع إلى القيل والقال، ويسجل في نوتة صغيرة السلوك المريب للمواطنين.

كان العميل السري يتواجد في الأماكن التي بها قضايا يمكن أن تتطور إلى نشاط إجرامي تلقائي أو

جماعي، وبالفعل، فإحدى هذه الحالات قد وقعت بالصدفة في يد «لبيدا»، وكانت توجد على مكتبه بين الملفات المتشابكة ذات اللون غير المميز. كانت هذه القضية تسمى «إتلاف لوحات إعلانية في الأماكن العامة». ففي الستة أشهر الأخيرة، غمرت المترو وأماكن وجود الإعلانات في الشوارع شعارات لحملة يقوم بها ناشطون مناهضون للإعلانات وللرأسمالية وهي عبارة عن صلبان سوداء على كامل اللوحات الإعلانية وشعارات عامة تقول: «تسقط الإعلانات، الإعلانات كاذبة، أيها المواطن، لا تكن غبيًا أو فلتذهب هذه الأموال إلى العاطلين عن العمل» أو شعارات خاصة مثل: «المرأة ليست سلعة»، و«هذه الغسالة تغسل عقلك»، أو «أنت الجدي» – إشارة إلى إعلان البيرة المرسوم على زجاجتها ذكر الماعز».

كذلك تعرضت اللوحات الإعلانية الضخمة الموجودة على الطرق السريعة، وخاصة طريق «دي 1» و«دي 2»، إلى هجمات شديدة الشراسة.

قامت شركات الإعلانات بطلب تعويضات عمَّا حدث على الرغم من أنها يجب أن تكون سعيدة بأن هناك شخصا ما انتبه لما يعرضونه من تفاهات، كما تحدث في الراديو مستشار وزير البيئة عن هذا التخريب غير المقبول وبأن هذا الأمر لا يمنع فقط تحسن الظروف البيئية، ولكنه يضر بها ضررًا بالغًا لا يمكن إصلاحه، فالألوان والإسبريهات المستخدمة تتضمن خليطًا من المواد الكيماوية المركزة. ولكن بفضل العمل الدؤوب للمحققين، فقد تبين أن هذه الجماعات من المناهضين للإعلانات قد نشأت بشكل منفصل في نهاية التسعينيات من القرن الماضي، ولكنها بدأت في إحداث خسائر جسيمة مع دخول الألفية الجديدة.

كان «وليام لبيدا» مكلفًا في المرحلة الأولى بتتبع معاني الرموز التي تستخدمها هذه الجماعات المناهضة للإعلانات، ولم يكن هذا الأمر سهلًا؛ فهذه الجماعات ذات توجهات أيديولوجية شديدة الاختلاف بدءًا من حركة PPR وتعني (مسالمون ضد الإعلانات) أو حركة TROPAK وتعني (ماركسيون ضد سطوة رأس المال) مرورًا بحركة EPZP وتعني (بيئيون ضد تلوث الكوكب) وحركة MK وتعني (الشباب المسيحي) وحركة ŽŽ وتعني (النساء للنساء) ناهيك عن عناصر جماعات الفوضويين الذين كانوا يغيرون أسماء تنظيماتهم المضللة كل أسبوع ومستخدمي البخاخ أو الإسبراي الذين كانوا يجمعون بين حربهم الأهلية على الإعلانات وبين الإبداع الفني الخاص بهم. في الأسبوع الماضي، عثر «لبيدا» على مجموعة تسمى «المخصيون» والذين كانوا يرسمون على لوحات الإعلانات الضخمة فئران وردية عملاقة وبجوارها فقاعة بها كوميكس تقول: «أنا فأر. هل هناك من يستطيع التفوق عليَّ؟». أظهرت الدراسة التحليلية الدقيقة للخط أن المجموعة تضم عضوين فاعلين.

كانت واحدة من البؤر التي تضم هؤلاء المدمرين للإعلانات توجد في الحي الذي يقيم به «لبيدا»، وهو الحي الذي سُجل به أكبر عدد من الإعلانات التي تم إتلافها سواء في إحدى محطات المترو الست أو فوق الأرض.

بالإضافة إلى قضية إتلاف الإعلانات، تعامل «لبيدا» مع قضايا أخرى مثل تعرض طالبة تدرس الفنون الجميلة للاغتصاب، وتعرض نادٍ لكبار السن المحليين لمحاولتي حريق وحادثة انتحار مثيرة

للاشتباه. كما قام بمبادرة شخصية منه بالتحقيق في قضية قتل لم يستطع أحد أن يتوصل لفاعلها على الرغم من مرور أربعين عامًا على حدوثها بالقرب من منطقة «مدفيدي سكالي» في جبال «كروشني هوري». فعل ذلك على الرغم من أنه لم يكن لديه أي صلاحيات للتحقيق في هذه القضية، فبخلاف أنها قد حُفظت، فقد كانت أيضًا تقع في نطاق اختصاص رجال المباحث في مدينة «خوموتوف».

وضع «وليام لبيدا» القاموس جانبًا، ونظر للحظات في الفراغ من حوله، وبصعوبة، حاول النهوض بجسده البالغ 110 كيلو جرامات. وعلى الرغم من درجات الحرارة المرتفعة بشكل غير مسبوق في صيف هذا العام، فقد سحب سترته من فوق الشماعة المتهالكة ثم وضعها على ذراعه، فتش في جيبه الأيمن ثم أشعل البايب وخرج من المكتب.

(9)

تم اغتصاب «س. ريزوفا» عندما كانت في طريقها مسرعة للقاء البروفيسور «بيلان» في أكاديمية الفنون الجميلة. كان سوء الحظ يلازمها منذ الصباح، فقد تأخر القطار القادم من مدينة «هردتس»، وعندما ركبت الترام، نزلت في المحطة التالية لمحطة نزولها، ثم أخطأت في العنوان، فقد كانت تعتقد أن الأكاديمية توجد بالقرب من الميدان الذي توجد به الكنيسة المشيدة على الطراز الباروكي والملاصقة للحديقة، وذلك لأنها زارت «براج» آخر مرة عندما كانت فتاة صغيرة لم تصل إلى سن البلوغ، فمن الواضع أن الأمر اختلط عليها واعتقدت أن متحف كفاح العمال، والذي يسمى الآن بمتحف «آندي وارهول» هو الأكاديمية. ولحسن الحظ، فقد أرشدها إلى الطريق الصحيح رجل مسن كان يجلس في الشمس ليدفئ عظامه الضعيفة والذي كان يجلس منذ فترة طويلة ويحفر بعصاه في الأرض.

كان مقررًا أن يتم اللقاء في الساعة الحادية عشرة والساعة وقتئذ كانت الحادية عشرة إلا سبع دقائق. كانت ستشعر بالحرج الشديد لو وصلت متأخرة عن الموعد، فقد وافق البروفيسور «بيلان» على أن يعطيها بعضًا من وقته بعد أن توسطت لذلك صديقة أمها والتي كانت منذ وقت طويل شاهدة على عقد قران أخته وبالتأكيد ليس لديه من الوقت ما يضيعه في انتظارها. قطعت «س. ريزوفا» شارع «هورالوفا»، وفي شارع «روزفلت» (الذي كان يسمى في الماضي بشارع «أبطال الاتحاد السوفيتي» ومن قبل ذلك كان يسمى بشارع «ستالين»، شارع «النصر» سابقًا، وأحيانًا كان يسمى بشارع «ولسون»، وقبل ذلك كان يسمى بشارع «القيصر»)، انحرفت جهة اليسار، وبعد حوالي ثلاثمائة متر، عبرت الشارع متوجهة إلى شارع «بوكليتشوفا»، وبعد أن قطعت ما لا يزيد على عشرين مترًا، انقض عليها شخص حقير من ممر مظلم، كان يرتدي معطفًا أسود، سحبها من شعرها وأغلق فمها بقطعة قماش نتنة وجرها بين صناديق الزبالة، ثم قام بنزع تنورتها وتمزيق سروالها الداخلي وأنزل حيواناته المنوية القذرة بفرجها.

(10)

قال مستأجر القوارب:

- لم أتذكر أنه مر علينا حر شديد كهذا من قبل، آخر مرة حدث ذلك كان عام 1898.

- حقًا؟

- في سنة 1846، لم يكن الوضع أفضل حالًا.

- لم أكن ولدت بعد حينها.

- ولدت أنا بعد هذا التاريخ بعشر سنوات. أنت تعرف أن هذا كان في وقت الثورة المجرية.

- كنت أنا حينها في علم الغيب.

- هذا الجو شديد الحرارة لم يكن معتادًا في الماضي.

- حسنًا، ولكننا على الأقل نستمتع بآشعة الشمس.

- في عام 1815، انخفض منسوب المياه ثلاثة أمتار، ولكنهم في عام 1876 اضطروا إلى تعلية ضفتي النهر، واليوم هي أعلى بكثير.

- لقد زادت حركة البناء كثيرًا في الوقت الحالي.

- في الماضي، كانت حركة البناء أكبر، ولكن المباني كانت أقل ارتفاعًا.

- هذه المباني الحديثة مفزعة حقًا، وأيضًا هذه التجمعات السكنية وما شابهها.

- الناس يريدون أماكن ليقيموا بها. أتعرف كم كان عدد سكان «براج» في عام 1501؟

- لا أعرف.

- وأنا أيضًا، لم أعد أتذكر، ولكنني قرأت هذا في مكانٍ ما، تقريبًا في الصحف.

- ولكنني أتذكر أنهم كانوا أقل بكثير.

- لقد مر وقت طويل على هذا.

- بعد هذا بعام، اكتشف «كولومبوس» «هندوراس» عام 1502.

- حقًا؟

- وعام 1815، عندما انخفض منسوب المياه في «براج»، كان هذا هو العام الذي مر فيه نابليون

بجوار «وترلوو».

- إنها في هولندا، أليس كذلك؟

- في بلجيكا، المهم أن هذا الحر الشديد لم يكن معتادًا في الماضي.

- حسنًا، المهم هو أننا الآن، على الأقل، نستمتع بدفء آشعة الشمس.

(11)

عندما ماتت «أنجكا»، فقدت عملية جمع الخنافس في الحدائق مبرراتها في أن يجد «دك» مبررًا للتهرب من أسرته كل يوم أحد بحجة ممارسة هذه الهواية النبيلة.

أمضى «دك» فترة من الزمن في القيام بلا شيء والتأمل.

كانت «أنجكا» أمًّا حنونًا لم يكن مثلها أحد. فلم تكن في الشهور الأولى التي أعقبت الولادة تغمض عينيها أثناء الليل. فعندما يبدأ «دك» الابن في الصراخ، كانت تسرع إلى المطبخ حيثما يوجد في سرير أطفال قديم مصنوع من خشب الماسيف (اشترته مستعملًا بـ 60 كرونة) وتدفع بالبزازة في فمه. وعندما كان «دك» الابن يصمت لفترة طويلة ولا يصدر أي صوت، تجري مرة أخرى إلى المطبخ وتضع أُذنها على فمه لتتأكد أنه ما زال يتنفس، وإذا لم تسمع شيئًا، تشهق ويشحبُ وجهُها وتسيطر عليها توقعات غامضة فتقوم بقرصه في ذراعه فيبدأ الرضيع في الصراخ، عندئذ تشعر بالراحة وتدفع بالبزازة في فمه.

وفي هذه الحالة، لم يذق «دك» الأب طعم النوم أيضًا، وكان يستاء كثيرًا من رضيعه هذا.

كانت أول كلمة نطق بها الطفل «دك» بشكل واضح هي «مهاو». إنها عبارة عن توليفة لفظية لأكثر الكلمات سماعًا لديه «ماما، هَم، تاتا». كان فخورًا بما يقوله ويدير وجهه في انتظار أن يثني عليه أحد، ولكن «أنجكا» فسرت ما نطقه بشكل خاطئ، معتقدة أنه يصرخ من الألم. فحملته إلى المطبخ حيث يوجد سريره وهي ترتعش خوفًا بينما يصاب «دك» الطفل بخيبة أمل ويصرخ بكل ما أوتي من قوة. تضعه «أنجكا» في سريره وتغطيه بلحاف مبطن بثلاث طبقات. فإذا كان «دك» الابن قد اعتقد حتى هذا الوقت في فصاحة العبارات التوضيحية والجوهر الحقيقي للأشياء، فقد توصل إلى هذا سريعًا. أصبح يتصبب عرقًا بشدة.

عندما تُوفيت «أنجكا»، كان عمر «دك» الابن لا يتجاوز الخامسة. عندئذ، كان يود «دك» الأب أن يتخلص منه في أي دار أيتام، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقد كان عدد دور الأيتام قليلًا، وبالطبع هم يأخذون الأطفال اليتامى الصغار وليس الكبار، ولكن اللجنة الوطنية قررت إدخال «دك» الابن مدرسة رياض الأطفال وكلفت السيدة المسؤولة عن إدارة شؤون العمارة المجاورة بأن تحضر «دك» الابن من المدرسة وتنتظر معه حتى عودة الأب من عمله. ومن محاسن الصدف أن هذه المرأة كان تسمى أيضًا «أنجكا»، لكن هذه الحقيقة لن تساهم كثيرًا لشفافية ووضوح قصتنا، ولذلك سوف نطلق عليها «أنجكا الثانية».

كانت «أنجكا الثانية» وراء حركاتها النشطة وتعاملها الإلزامي مع المستأجرين تخفي روحًا متدينة واسعة العلم بالمسائل اللاهوتية، فقد اعتادت أن تقول للابن «دك» عندما كان يبحث عن أمه في الأسابيع الأولى لرحيلها: «الله حق وهو أفضل أب لليتامى». تقولها بصرامة نسبية وفي الوقت نفسه بتأثر. «إن بيت الله أعظم من بيوت كل الحكام؛ فبيوتهم بالنسبة لبيته كأنها بيوت من طين أو إنها

تشبه بيت الحلزون». كان «دك» الابن لا يفهم بعض مصطلحاتها الدينية، ويشعر أن هذه السيدة تتحدث لغة أجنبية غير مفهومة، وعندما أضاف إلى ذلك كيف أن هذه السيدة فجأة أصبحت تتدخل في أدق تفاصيل حياته، توصل إلى قناعةٍ بأن هذه السيدة مجنونة. كان يضطر إلى أن يحتفظ بشكوكه هذه لنفسه عندما تشتري له كرواسون وهي تحضره من المدرسة.

كانت «أنجكا الثانية» تعرف عمَّا تتحدث؛ فقد فقدت هي الأخرى أحد والديها وهي في سن الطفولة، تُوفي والدها على الجبهة الجنوبية أثناء الحرب العالمية الأولى.

من نقل خبر وفاته حينئذ جندي مبتور الذراع يُدعى «توندا كوبليك». «اسمي «توندا كوبليك»، أحمل لكم أخبارًا عن السيد «كايا»، ولكنها للأسف ليست أخبارًا جيدة». كان هذا خبرًا غير عادي. حدث هذا يوم 24 ديسمبر 1915 عندما وصل إلى كتيبتهم واعظ مع أحد الكهنة المنتمين إلى منهج القديس «بينديكت»، عندها قام والد «أنجكا الثانية» هذا الرجل الوطني المُسَالِم الرافض لسيطرة القساوسة– وفقًا لـ «كوبليك» – بالصراخ بغضب شديد قائلًا: «هل نحن بحاجة إلى كاهن هنا أيها الأصدقاء؟ أنا لا أعترف بوجود الله، وإذا كُنت مخطئًا، فليُرِني نفسه ويُدَمِّرُ هذا السلاح المميت الذي أمسك به في يدي اليمنى». ثم لوح ببندقيته فوق رأسه. وفي هذه اللحظة، وفقًا لرواية «كوبليك»، طارت رصاصة من ناحية خطوط العدو، نزعت نفسها من الزناد وانزلقت في ماسورته واستقرت مباشرة في هذه الجمجمة التي تُنكِرُ وجودَ الله. قال «كوبليك»: «بالتأكيد من السهل أن نلاحظ دائمًا قدرة الله وهي تتجلى أمامنا، فعلى سبيل المثال، أمي لم تعد تُجادلُ زوج أختها الأرمل بعد أن ضرب البرق بيتها الريفي ودمر نِصفَ سقفه». أكمل «كوبليك» حديثه قائلًا: «ولكن ما حدث كان رسالة لنا جميعًا، أقسم لك إن كل من كان حاضرًا هناك بما فينا هذا الكاهن الذي صار شاحبًا تمامًا وكانت يداه ترتعشان بشدة، وقد بدا لنا هذا غريبًا، فهو الوحيد الذي كان يجب أن يتوقع هذا، أليس كذلك؟ أتمنى أن يغفر الرب لـ «كايا» فهو لم يكن بالشخص السيئ».

كانت «أنجكا الثانية» حاضرة عندما قص «كوبليك» على الأم تلك القصة الغريبة. استمعت الأم إلى ذلك الخبر حتى النهاية، ثم ترنحت وسقطت مغشيًّا عليها.

انحنى «كوبليك» على جسدها المنهار، وقام بفك أزرار قميصها بيده وطلب من «أنجكا الثانية» أن تذهب للعب في الغرفة المجاورة.

ولكن في النهاية، أصبح «دك» الابن يحب هذه العمة المجنونة، وكان يُفضل صحبتها على صحبة والده، ولكنه يعرف أن القرار بيد أناس آخرين. كان في كثير من الأحيان يبكي حزنًا عندما تغادره، وذلك أيضًا ليعبر عن موقفه بصورة أوضح، آملًا أن يخرج الأب من الحقيبة البالية واحدة من الكرواسون ليجعله يهدأ قليلًا، ولكن الأب لم يفعل هذا أبدًا. كان «دك» الأب يستلقي على أحد مقاعد المنزل وينظر بقرف لابنه ويقول له: «ابكِ، ابكِ يا بني، فعلى الأقل لن يجعلك هذا تتبول كثيرًا».

ثم ينهض ويتوجه إلى المطبخ ليعدُ لنفسه فنجانًا من القهوة التركي.

بعد فترة، قرر «دك» الابن أن يلجأ إلى شكل من أشكال التواصل اللفظي الأكثر تحضرًا. بالطبع لم يكن يعلم أنه يطبق الحقيقة المثبتة في علم النفس وهي أن مواجهة المشكلة هي الخطوة الأولى لحلها

وللحصول على الثقة المطلوبة للتواصل مع المجتمع. حبس دموعه وسأل سؤالًا توضيحيًّا:

- لماذا لا تظل العمة معنا هنا باستمرار؟

ولكن حتى هذه الطريقة لم تجدِ نفعًا.

- كان بوسعها أن تظل هنا لترعاني.

لم يكن لكلامه هذا أي معنى من الناحية الموضوعية، فبغض النظر عن أن «أنجكا الثانية» كان لديها الكثير من العمل إضافة إلى المنزل الذي كانت مسؤولة عن إدارته، فإنه لم يكن لدى السيد «دك» الأب ما يُخفيه عن الدولة، فقد كانت ردود أفعاله غاية في التلقائية، ولكن لا بأس في أن يعبر من وقت لآخر عن تفاخره بنفسه بصورة عملية.

أما بالنسبة لـ «دك» الابن، فقد كان هذا دليلًا آخر على أن اللغة شيء عديم الفائدة؛ لأنها غير قادرة تمامًا على تحقيق التواصل بين الناس.

استفاد «دك» الأب من الموقف، لأنه كان يمارس الجنس مع زميلاته في العمل اللاتي أتحن له هذا تأثرًا بأنه قد صار أرملًا في هذه السن المبكرة. كما عرضن عليه بشكل متكرر أن يأخذن «دك» الابن يوم الأحد في رحلة أو إلى حديقة الحيوان، ولكن هذا الأمر لم يحدث. لم يكن «دك» الأب ينوي أبدًا وبأي شكل من الأشكال أن يجمع بين حياته الجنسية وحياته الأسرية، ولكنه أدرك مبكرًا أن أفضل طريق لكي يبعد هؤلاء اللاتي يرغبن في لعب دور الأم البديلة هو أن يخبرهن أن ابنه هذا طفل معتوه. كانت هناك بعض الحالات الاستثنائية منهن واللاتي لم يستسلمن بسهولة، فاضطر أن يشرح لهن قائلًا: «ليس من الضروري أن تكون متخصصًا في الأحياء لكي تتمكن من النظرة الأولى من معرفة الفرق بين العاقل والجماد، فكل ما هو عاقل يتنفس وينمو.. إلخ إلخ». المشكلة كانت مع هذه الحالات الاستثنائية من النساء. «فابني على سبيل المثال ينمو، نعم، يتنفس، بالتأكيد، لكن لا أكثر ولا أقل». علاوة على أنه كان يخبرهن أيضًا عن الريالة التي تسيل من فمه بلا انقطاع، عن رأسه التي تعاني الاستسقاء ونظراته المتحجرة. كان يكفيه أن يختار لحديثه نبرة مناسبة مستسلمة وحزينة إلى حد ما لكي يُثير في زميلاته موجة أخرى من التعاطف مع شخصه ويُوقع بمجموعة جديدة منهن في شباكه.

وبعد عام ونصف العام تقريبًا، عندما التحق «دك» الابن بالمرحلة الابتدائية الإلزامية، بدأ خاله غير الشقيق يهتم به، كان هذا الخال من أصحاب المعاشات ولم يكن لديه امرأة ليقضي معها وقته، ولكن حتى هذا الخال لم يكن يحضر له الكرواسون. كان يُجبر «دك» الابن أن يأخذ منه بعض الكتب القديمة المصورة التي تفوح منها رائحة العفن، كان يُعيرها له في المناسبات ويلزمه بإعادتها في يوم السبت التالي. كان هذا الخال يسأله أسئلة محرجة عن مضمون هذه الكتب.

لحسن الحظ، مات هذا الخال بعد وقت قصير، فقد أصيب بجلطة دماغية عندما كان يحاول أن يصعد إلى الترام الممتلئ عن آخره، وقضى آخر ثلاثة أشهر من حياته في فراش المرض. كانت ترعاه ابنة أحد أقاربه من الدرجة الخامسة عشرة، آملة أن ترث الشقة بعد وفاته. ذهب «دك» الطفل إليه مرة

واحدة في زيارة إجبارية، كان مستلقيًا في فراشه، يدير عينيه ويحرك إصبع يده اليمنى بشكل مندفع. سعد «دك» الابن بهذه الزيارة، فكما قالت الفتاة إن هذه من اللحظات النادرة التي حاول الخال فيها أن يتكلم. لم تكن شفتاه تتحركان فعليًّا، ولكن الأصوات تندفع من فمه كأنها أسماك طائرة، وقال سائلًا:

- مدددسة؟

فقالت الفتاة مترجمة ما يقوله:

- ماذا عن المدرسة؟

- تقققققرااسريع؟

- هل أصبحت تقرأ بشكل أسرع؟

- فففففي سسسسن ججججد.

- عندما كان في سنك، قرأ رواية الجدة.

نظر «دك» باندهاش إلى فم الخال الذي لا يتحرك، وسأل إذا ما كان الخال يستطيع أن يأكل الفاصوليا. لماذا الفاصوليا؟ لم يكن هذا الأمر واضحًا بالنسبة له.

جاء صوت الأب من خلفه:

- هيا فلنذهب؟

بعد بضعة أيام، وارى الخالُ الثرى، فالزمن هو أفضل طبيب.

نعم، فالزمن يمر ويذهب ويخطو بكامل عظمته وثقته الهادئة. أمَّا «دك» الأرمل، فقد كَبِرَ سنه وتساقط شعره، كان من وقت لآخر يضاجع إحدى زميلاته في العمل، ومن وقت لآخر يذهب إلى المكتبة المحلية أو إلى المسرح، ونادرًا ما يذهب إلى السينما أو إلى البار. أمَّا «دك» الابن، فقد كبر وأصبح مشعر الذقن والجسد حتى إنه كاد أن يحصل على الثانوية العامة، ولكن لم يُسمح له بذلك، فقبل موعد الامتحان المصيري بعدة أسابيع، ذهب فصله لزيارة النصب التذكاري للسلام، وخلالها ذهب «دك» وثلاثة من زملائه إلى أحد المطاعم، حيث شربوا حتى السُكر. وأثناء عودتهم من البار، بدأ زملاؤه يصيحون في الشارع: «عد إلى منزلك يا إيفان» (كان «دك» الابن غارقًا في صمته كعادته)، كما قام أكثرهم جرأة بالصراخ في الرائدات الشابات العائدات من زيارة النصب التذكاري للسلام وتفوه بكلمات تعد مسيئة للنظام الاشتراكي العالمي، وذلك وفقًا للمادة 98 والمادة 104 من القانون الجنائي: قال:

- نحن الرائداتُ الصغيرات لدينا فتحات صغيرات عندما نَصِرن كبيرات سنعمل بالكرونات.

انتهى الأمر بأربعتهم إلى السجن، ولم يتمكنوا من أداء امتحان الثانوية العامة. الزمن يمر بغموض

وشراسة. نادرًا ما كان «دك» يغادر «براج»، كان يحب القراءة ويتردد على المسرح والسينما والحديقة والبار. ومن وقت لآخر، يضاجع إحدى زميلاته، ولكن هذه الفرص تضاءلت مع مرور الوقت، ولو لم تكن هذه الحفلات الليلية التي تنظمها الشركات موجودة، ما كان يعرف إذا كانت إحداهن ستسمح له بذلك.

لكن الزمن يمضي حتمًا بلا توقف ويداوي الجراح، فهو أحسن طبيب. من وقت لآخر، كانت تندلع حرب ما هنا أو هناك وتنتهي أخرى في مكان ما. ومن وقت لآخر، تظهر موضة جديدة ثم تأتي أخرى أحدث منها لتأخذ مكانها. خرج «دك» الابن من السجن وبدأ يكسب قوته بنفسه، أحب فتاة وانتقل للعيش معها في إحدى الضواحي.

الزمن يمضي متقلبًا بلا توقف، إذن فلماذا لا تقل مصائبه؟ اشترى «دك» تليفزيونًا وغسالة جديدة، ولكنه ما زال يسأل نفسه: «هل هناك معنى لوجود الإنسان، وهل استفدت من حياتي هذه في شيء؟ لقد ذهب شبابي بينما جسد «أنجكا» ما زال يتحلل في القبر، خمسون عامًا معلقة في رقبتي، الذاكرة لم تعد تسعفني كما أعاني الأرق والكوابيس. أشعر بخيبة الأمل، أشعر بخيبة الأمل من نفسي وأشعر أن طاقتي النفسية قد أوشكت على النفاد».

إن الأرق هو عرض من أعراض الاكتئاب الذي يُمكن علاجه بسهولة، ولكن في الظروف العادية. يكفي أن تفقد كل أمل في المستقبل، وسوف تنام كجزع الشجرة.

ولكننا نتحدث عن فترة لم يصل بها «دك» إلى مرحلة النضج، الفترة التي من المبكر أن يكون الشخص بها أسيرًا للأوهام، كان ضعيفًا وغير عقلاني كي يتمكن من أن يُحدث من وقت لآخر تأثيرًا إيجابيًّا في حياته.

لم يكن حاله أفضل من الناحية البدنية، فقد كان يعاني الروماتيزم والوهن وشدة التعرق والسمنة في منطقة البطن وعدم نمو الشعر تحت الإبط وحول العضو التناسلي، كما يعاني صغر حجم الخصيتين، والضعف التدريجي لقدرة عضوه الذكري على الانتصاب وندرة القذف. باختصار، يوشك كل شيء على الانتهاء. كان في الليل ينهج ويتأوه ويئن، ويعاني خلال النهار آلاما في أماكن متفرقة من جسده، فقد كان يعاني آلام الظهر والكليتين والركبة اليسرى وآلام الكوعين والمعدة واللثة والأسنان وأيضًا أصابع يديه.

وفي مواجهة حالة الانهيار هذه (فحتى الانهيار يمكن أن يتحسن)، قرر «دك» أن يفعل شيئًا. ولكن ماذا سيفعل؟ هل سيعود لممارسة هوايته في جمع الخنافس؟

هل سيقيم علاقة قوية بينه وبين ابنه وخطيبته؟ هل سينضم إلى رابطة رجال الإطفاء؟ هل سيزور شاطئ البحر الأدرياتيكي؟ هل سيهتم بتربية النباتات والزهور؟

هل سينضم للمعارضة؟ هل سيرحل عن المدينة الكبيرة ويعود إلى رحم الطبيعة البكر؟ أم سيذهب إلى أحد مراكز اللغات لدراسة اللغة الإيطالية؟ لكنه قرر أخيرًا أن يكتب كتابًا. لم يكن مقتنعًا أن كتابة الكتب يمكن أن تكون شيئًا عظيم المنفعة، ولكن كان بداخله شعور معين بأنه باستطاعته أن يكتبه

بشكل جيد، ولكن المهم أن يعرف عن ماذا سيكتب. في البداية، فكر في أن يقوم بتأليف أطلس الخنافس أو يكتب كتابًا إرشاديًّا لهواة جمعها، ولكن بدا له أن هذا لن يكون إلى حد كبير ذا طبيعة أدبية. سيطر على تفكيره لفترة أن يكتب عن قصته مع «أنجكا»، ولكنه توصل إلى قناعة أنه لم تكن هناك قصة بينهما. ثم فكر في أن يكتب رواية تاريخية (ولكنه تردد هل يكتب عن الجنرال «فالدشتين» أم عن القبطان «جيمس كوك»)، ولكنه بدأ مع الوقت يقتنع أنه إذا بدأ بالكتابة عن شيء معقد، سيكون هذا اختيارًا موفقًا. فكر أيضًا أن يكتب رواية عن الفترة المعاصرة يكشف فيها عن علل المجتمع الحديث ولكن بخلفية كوميدية، ولكنه في لحظة، توصل إلى رؤية بأن هذه الفترة ليست أقل جمالًا عن الفترات السابقة. فكر أن يكتب شيئًا مثل ملحمة عائلية تتشابك بها مصائر عدة أجيال، ولكنه في النهاية قام بتقليص عدد هذه الأجيال إلى جيل أو جيلين على الأكثر. عثر بعد وفاة أبيه على مجموعة من الكراسات المدرسية تركها في خزانته الموجودة بصالة الشقة، ورسمين بدائيين لطفلين ونسخة ممزقة من كتاب «قلب أميسيس» وصورا غير واضحة لجنود مبتسمين يرتدون الزي العسكري الأنيق لل- «فيرماخت» الألماني وبطاقة تعريفية من تلك التي تُعلق في رقبة الجنود وخنجر كتب عليه بالألمانية «شرفي هو ولائي» وطقم أسنان الرقيب «فايفر» وهو صديق قديم لأبيه ومستشاره أيضًا. استشهد هذا الرقيب بالقرب من «ستالينجراد»، فقام الأب بنزع طقم أسنانه حبًا فيه لأنه كان يعتقد اعتقادًا غير مفهوم بأن وجود طقم الأسنان يَسلب الجندي الشهيد بطولاته. نجا الأب من الهجوم الروسي وفر من الخدمة عند تقهقر الجيش الألماني، وظل طوال الفترة المتبقية من الحرب مختبئًا عند أقاربه في «مورافيا». وفي عام 1945، عاد إلى «براج» وشنق نفسه. احتفظ «دك» بالصور والكراسات والرسومات وبالبطاقة التعريفية وبالخنجر، ولكنه تردد للحظات في الاحتفاظ بطقم الأسنان ثم تخلص منه، فلم يكن يعرف ماذا سيفعل به.

(12)

عبر «وليام لبيدا» الشارع في اتجاه شارع «نا سترا بوشتيه» وتوجه إلى أحد أكشاك بيع الخضراوات ليشتري طماطم، فقد قرر منذ عدة أيام أن يحاول صناعة عصير الطماطم في المنزل. كانت الطماطم الفاسدة مخبأة بعناية في الصف الثاني، ذلك إحدى العواقب التي نتجت عن اندلاع الثورة الأخيرة، فلم يكن يجرؤ بائعو الخضراوات على فعل هذه الأشياء خلال فترة حكم النظام السابق. اشترى «لبيدا» كيلوين طماطم من هذا الرجل المُتجهم ذي الأظافر الطويلة ثم أكمل طريقه.

كانت هناك مخلوقات من ذوات الاثنين وذوات الأربع تسير مجهدة في هذه الشوارع الحارقة، مخلوقات مترددة متنوعة الجنس والدين. يقع نادي أصحاب المعاشات في الدور الأرضي من منزل غير مميز بُني في فترة ما قبل الحرب في شارع «هالك».

توجد فترينة في مدخل المنزل يمتلئ نصفها تقريبًا بإعلانات الوفاة، بينما احتل الباقي منها معلومات من الواقع (لقاءات وبرامج ترفيه يومي الأربعاء والسبت).

هناك صورة واحدة باهتة لبعض المسنين المبتسمين عندما كانوا يجلسون في الماضي في أحد المطاعم المفتوحة. كما كان هناك شعار كُتب بحروف كبيرة يقول «إلى الأمام يا أصحاب المعاشات»، وأيضًا رباعيتين من الشعر كانت أولهما تحكي عن هذه الصورة:

«لا توجد أمة صغيرة إذا كانت تمتلك مُثلًا عليا لن ترى عيوبها إذا كان عقلها مشوشًا».

أمَّا الرباعية الثانية، فقد تم وضعها داخل إطار يتضمن ما هو جديد في العالم، وقد تم تثبيتها تحت قصاصة قديمة من الصحف مضى عليها عام ونصف العام تقريبًا تتحدث عن انتصارات قوات التحالف في أفغانستان. تقول:

«العالم أسوأ من الوجه الأبكم السلاح فيه هو صاحب الكلمة العليا الجميع يتجولون بمدافعهم الرشاشة للأسف هذا هو السائد في عالم اليوم».

دخل «لبيدا» إلى القاعة، فوجد بابًا كُتب عليه:

«اضرب الجرس وتفضل بالدخول».

ضرب الجرس ودخل، فوجد نفسه في صالة فسيحة. جاء صوتٌ جهور صادر من شخص يجلس في الجهة المقابلة من القاعة:

- لا يمكنك الدخول إلى هنا، هذا المكان مخصص لأصحاب المعاشات، وإذا كنت وافدًا جديدًا، فعليك أولًا أن تتقدم بطلب لذلك.

كان هناك عجوز ضئيل الجسد يحدِّق بفضول في «لبيدا»، يرتدي سترة رثة انتهت موضتها منذ وقت طويل.

- هل أنت السيد «رومل»؟

- نعم، إنه أنا.

أراد «لبيدا» أن يُخرج كارته الشخصي، ولكنه تردد في ذلك.

- لا تؤاخذني، أنا أردت فقط أن أسأل أو بالأحرى أحصل على معلومات مؤكدة عن هذا الحريق. فأنت تعرف أن هناك الكثير من الأقاويل حول هذا الأمر، وقد أرسلتني أمي لأسأل عن السيد «دك»، فهو واحد من زوار هذا المكان، أليس كذلك؟

- نعم السيد «دك»، هذا الرجل الأرمل منذ سنوات طويلة.

- أعلم هذا، فالسيد «دك» عمي، وأمي خائفة عليه، فهناك الكثير من الأقوال عن هذا الأمر.

- هل أنت أحد ورثته؟

- نعم.

- أها.

- كاد الأمر أن يتحول إلى كارثة وفقًا لما كتبوه في الصحف.

- ولكن السيد «دك» له ابن.

- فعلًا.

- ولكن هذا الابن لم يكن بارًا به.

- أعرف هذا.

- ولكنني لم أكن أعرف أن له أُختًا.

- له أخ وليس أختًا، ولكنهما تشاجرا معًا. كان هذا منذ وقت طويل.

- أها.. هذا هو السبب إذًا؟

- نعم.

- هل تعرفه؟ أقصد هل تعرف ابنه؟

- من بعيد.

- يُقال إنه متخلف عقليًّا.

- نعم.

- هل من حق زوجة الأخ أن تحصل على نصيب من الميراث؟

- بالتأكيد الأولوية لابنه ثم لوالدي. على الأقل هذا ما تظنه أمي.

- أها، الأسرة.

- أنت تعرف هذه الأمور بالطبع.

- كلهم نسور طامعة.

- خسارة كبيرة أن نفقد شخصًا مثله.

- إن السيد «دك» أديبٌ.

- فعلًا.

- رجل في غاية الذكاء، هل انتبهت لهذه القصائد الموجودة بالخارج؟ أنا من قمت بنظمها. قال السيد «دك» عنها إنها فخر حتى لأكبر الشعراء.

- إنها لطيفة جدًا وبليغة.

- هل أرسلتك إلى هنا زوجة أخي «السيد دك»؟

- نعم، فقد أفزعها خبر الحريق.

- أفزعها؟

- فلنقل أخافها.

- لقد جاءت الشرطة إلى هنا.

- حقًا؟

- أخذوا أعقاب السجائر من طفاية السجائر.

- هل تم التحقق من شيء ما؟

- يا رجل! لم يحقق أحد بصورة جديدة في الأمر، فمن يهتم اليوم بحال أصحاب المعاشات؟

- معك حق.

- باستثناء النسور.

- كانت ستصبح خسارة كبيرة لو فقدناها.

- حضر ثلاثة فقط إلى هنا، وأخذوا مني كل أعقاب سجائري.

- يقول الناس في محيطنا إنها ربما لم تكن مجرد حادث طارئ. ثاني مرة خلال العام..

- قطعًا لا، لن يتوصلوا إلى شيء أبدًا. لا بد وأن يختلطوا بالناس، يتحدثون معهم ويعرضون عليهم السجائر. أنا أجلس هنا طوال اليوم ثلاث مرات في الأسبوع، ففي يوم الخميس، أذهب لتخليص بعض الأوراق، ويومي الأربعاء والسبت أخصصهما للقاءات وللترفيه. أفعل كل هذا متطوعًا، ولكن من يهتم اليوم بحال أصحاب المعاشات؟

- وماذا عن المستأجرين في هذا المنزل؟ هل يوجد بينهم مسنون؟

- «السيدة «نايمانوفا» في الدور الثاني. أرملة، ولكنها لا تأتي إلينا بل وتسخر منا. إنها تضع الماكياج كأنها بنت ثلاثين عامًا، وقحة.

- هل يوجد أحد آخر؟

- السيد «هروزناتا» في الدور الثالث، ولكنه دائمًا في حالة سكر. لكن زوجته «هروزناتوفا» لا تستطيع السير، فقد ضربها «هروزناتا» بالعكاز، الخاص بها. لا يزال السيد «هروزناتا» يتمتع بنوع من المرح. أدمنت هي الأخرى الخمر.

- في كل دور توجد شقتان، أليس كذلك؟

- ليس دائمًا، هناك شقتان في الدور الأرضي، ولكن لا أحد يقيم بهما. أمَّا في الدور الأول، فيسكن به بعض الأوكرانيين ربما، لستُ متأكدًا من جنسيتهم، لا أعرف، وكذلك السيدة «كلوسكوفا» والتي ما زال أمامها وقت طويل لتصل إلى سن المعاش. في الدورين الثاني والثالث، توجد شقة واحدة فقط ولكن مساحتها مضاعفة بالتأكيد.

- حدث هذا الأمر في وقت متأخر من مساء يوم السبت، أليس كذلك؟

- لكن هذا لا يعني شيئًا.

- ماذا تقصد؟

تردد الرجل المسن فجأة.

- كيف أوضح هذا؟

- ربما كانت هذه حادثة غير متعمدة، فمعظم الأعضاء من المدخنين، أليس كذلك؟

- لا أعرف، فأنا لم أحصِ عددهم.

- أنا أدخن البايب.

- هممم، أنا لا أدخن.

- وماذا عن العضوات، هل توجد سيدات هنا؟

- أربعة ونصف.

- كيف ذلك، أربع ونصف؟

- أربع سيدات يترددن بانتظام على المكان، وواحدة تأتي على فترات متباعدة، تُدعي «يارميلكا».

- أعتقد أن هناك علاقة تربط السيد «دك» بالسيدة «هوراكوفا»، أليس كذلك؟

- نعم، ولكنها أنهت هذه العلاقة.

- أظن أن الشرطة طلبت منك قائمة بأسماء الأعضاء.

- أوراقي كلها سليمة.

- أود أن أصدق ذلك، يبدو من لوحة الإعلانات أن هناك شخصا ما يهتم بها حقًا.

انتعشت ذاكرة هذا العجوز.

- وهل حقًا تُدخن البايب فقط؟

- نعم.

- لقد نسيت أن أشتريها اليوم، أقصد السجائر. فأنا لا أستطيع أن أغادر مكاني هذا، فربما يحضر أحد لزيارتنا.

- إذا أحببت، يمكنني أن أذهب لأشتريها لك، فلديَّ الكثير من الوقت، أي نوع من السجائر تُدخن؟

- لو كان معي نقود لاشتريت سجائر أمريكية «مارلبورو» أو شيئًا مشابهًا.

- سأحضرها لك.

- ولكنني لن أستطيع أن أدفع لك ثمنها.

- من فضلك هذا شيء بسيط.

- معي نقود تكفي فقط لشراء سجائر من نوع «ستارت». عندي اقتراح، أنت تشتري لي «مارلبورو»، وأنا سأعطيك النقود التي كنت سأدفعها ثمنًا لـ «ستارت» وتسامحني في الباقي مقابل أن أفعل لك ما تريده.

- يبدو لي هذا الأمر مقبولًا.

- أرأيت؟ إذن أسْرِع.

في الوقت الذي كان المفتش «لبيدا» متوجهًا فيه إلى أقرب محل لبيع السجائر حاملًا كيس الطماطم، كان هناك شخص آخر في مكان لا يبعد كثيرًا عن ذلك المكان يحاول أن يقتحم شقة السيدة «هوراكوفا» التي تم تشميعها. أمسك هذا الشخص المجهول المقبض، وفتح الباب بعنف، وتوجه مباشرة وبلا تردد إلى غرفة النوم.

خلال زيارته الأخيرة للشقة، كان هناك صندوق جديد للأحذية فوق صندوق يحتوي على ملابس ومفروشات، ولسبب ما أحتَفِظ به لنفسي مؤقتًا، لم يتمكن من فحص محتويات هذا الصندوق، ولذلك فهو الآن يرتكب هذا العمل المخالف للقانون ويخاطر بتعريض نفسه لمشكلات كبيرة مع الشرطة.

فهذا الرجل المجهول يمكن أن يكون سيدة مجهولة، وبالتالي فعلى القارئ أن يُكيفُ الجُمل التالية لتتوافق مع ضمير المؤنث: ملكها، لم تتمكن، تُخاطر.

(13)

قالت السيدة «بروخازكوفا»:

- لكن حذاءك ما زال جديدًا يا سيد «دك».

وكأن السيد «دك» لم يكن مدركًا لهذا الأمر. كان قد ألقى بحذائه القديم في سلة المهملات. صارت فردة الحذاء اليسرى تشبه فك سمكة القرش، بينما كانت الفردة اليمنى صغيرة عليه. ذهب إلى محلين كان يعرفهما منذ وقت بعيد، ولكن لم يعد لهما وجود، فقد تحول الأول إلى سوبر ماركت، بينما تحول الثاني إلى ملهى ليلي أو إلى محل ترزي. ومع ذلك، فقد اشترى الحذاء أخيرًا ولكن على بعد ست محطات بالترام. اشترى حذاءً لامعًا، منتجًا أصليًا محلي الصنع بمقدمة مستديرة بمبلغ 2450 كرونة. كما وصل إليه كتالوج يتضمن بعض الإرشادات المشتركة للاستخدام السليم للحذاء. ولكن لماذا المشتركة؟ منذ عدة سنوات، أدت مثل هذه الأشياء غير الواضحة لأن يقوم «دك» بتقديم استقالته من عمله. بخلاف أشياء أخرى، قرأ «دك» في هذه الإرشادات أن تغيير الجوارب والنظافة اليومية تساعد على الحفاظ على صحة القدمين، وأنه عندما تزيد الحرارة على 50 درجة مئوية، فإن هذا يؤدي إلى إلحاق ضرر كبير بالحذاء، وأن الحذاء المخصص لوقت الفراغ يمكن أن يستخدم للمشي ولكن فقط في الأماكن ذات الطبيعة المعتدلة، كما يجب تغيير الحذاء في الجو الممطر. كان الكتالوج مزينًا بأربعة شعارات لشركات مختلفة: «درماتكس»، و«دسكا إي»، و«لورانزو» و«جلوريا لين». أها، الآن فهمت لماذا كانت الإرشادات مشتركة. لقد وضعتها تلك الشركات معًا.

- إنه يناسبك كثيرًا، إنك حتى لم تتفاخر بأن لديك حذاءً جديدًا! مد «دك» قدمه تجاه السيدة «بروخازكوفا»:

- قِفِ بقدمكِ على الحذاء.

- ماذا؟

- قِفِ عليه، فأنت تعرفين أنه يجب مباركة الحذاء الجديد.

مرت الذكريات القديمة بخاطر السيدة «بروخازكوفا» وارتعش صوتها:

- أتظن ذلك؟ هل سأجرؤ..

- تحلِ بالشجاعة..

فقامت السيدة «بروخازكوفا» بالخطو برقة بحذائها القديم على الحذاء الجديد للسيد «دك» وانتفضت مبتعدة.

- ستكون هناك بقعة قذرة على حذائك.

- بقعة قذرة على الحذاء أفضل من بقعة قذرة على المخ وفقًا لكلام...

ولكنه أمسك نفسه في الوقت المناسب.

- كان عليَّ أن أمسحه بالمنديل، أليس كذلك؟

(14)

اتضح أن كتابة الروايات أقل متعة بكثير من جمع الخنافس، فبعد أن قام «دك» بتسجيل بعض المواقف الدرامية على ورقة خاصة والتي كان من شأنها أن تحدد الخطوط العريضة للقصة، وبعد أن خرجت من الآلة الكاتبة أولى صفحات الرواية، لم يعد الإلهام يأتيه. حاول أن يكتب بأشكال مختلفة: «ولدت في 15 نوفمبر عام 1926. أخبرني عمي أن الشوارع كانت ممتلئة بأوراق الأشجار المتساقطة، وكان الضباب يلف نوافذ مستشفى الولادة». أو «لقد احتفلت اليوم بعيد ميلادي العاشر، خبزت والدتي كعكة ووالدي كان يبتسم بطريقة مختلفة». أو «قبل اندلاع الحرب، كنا نذهب كل صيف إلى.. كان الأب شديد الشغف بصيد الأسماك واكتشف في.. الجنة الحقيقية على الأرض عند نهر «بولكافا» والذي كان يطارد به أسماك السلمون المرقط». أو «تنهدت أمي بقلق كبير وهي تنظر إلى ساعة الحائط القديمة في المطبخ وقالت: أين يتسكع طوال هذا الوقت؟».

يَسرني أن أذكُر بصفة خاصة القراء صغار السن بأنه في الفترة التي قام فيها «دك» بتأليف أول كتاب له- وكما تبين لاحقًا أنه كان أيضًا الأخير- كان المؤلفون يعتمدون على أنفسهم فقط، فلم تكن هناك كتب تعليمية ناهيك عن تعلم كيفية الكتابة الإبداعية، ولم يكن يوجد كورس كيف تصبح أديبًا في ثلاثة أشهر؟

الدرس الأول: قم باختيار الموضوع المناسب، الدرس الثاني: ابحث في القواميس عن الصفات الغريبة، الدرس الثالث: لا تخشَ استخدام الصور المجازية، الدرس الرابع: اكتب بشكل جذاب، الدرس الخامس: إن نظرة الكاتب لمضمون الملحمة يبين مكنون الشخصيات بشكل أفضل من الحوارات الكوميدية. لا، لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. فقط العزلة الإبداعية المؤلمة هي السائدة مع الآلة الكاتبة بشريط الكتابة غير المريح بشكل لا نهائي مع الممحاة المصنوعة من المطاط، تمر بمشقة على كل صفحة تحتوي بالكاد على خطأ مطبعي واحد.

كان لزامًا عليهم أيضًا أن يقرؤوا الإخفاقات المعتادة لأدباء التشيك: كانوا يأخذون مؤلفاتهم بكل جدية. أضاع «دك» الكثير من الوقت بحثًا عن الأفكار الأساسية وتقديم القيم الأخلاقية التي كان يحاول إبرازها بصورة غير مباشرة في روايته.

ولكن «دك» لم يستسلم، كان بعد كل محاولة فاشلة يبدأ من جديد. وبعد عام ونصف العام، خرجت الرواية للعالم. كانت رواية تُحكى على لسان إحدى شخصياتها. تحكي عن شخص مدني انضم عام 194، إلى صفوف المقاتلين، غلام من المدينة بدأت تظهر أول شعيرات في ذقنه، عشق فتاة تعمل في الطاحونة، حيث كان الطحان يريد أن يستأثر بها لنفسه، ولكنه لم يكن يدرك أن الزمن القادم هو زمن الشباب.

قصة محزنة. كان الطحان يغار من «دك»، ولذلك فقد قام بإبلاغ الألمان عن المقاتلين، فقاموا بملاحقتهم عبر الغابة والقضاء على مجموعتهم القتالية واحدًا يلو الآخر. بدأ بـ «باشتيك» الذي كان يعاني تقوسًا في القدمين مرورًا بـ «كانتور» الذي تحطمت نظارته أثناء هروبه مرورًا بـ

«رودا» كبير الحجم والذي كان يعمل في السكة الحديد قبل الحرب ثم «كرجيجالا» و«توندا» وعامل المناجم «فينا» (ولأسبابٍ متعلقة بالوعي الطبقي للمجتمع، فإن روايتنا لن تفتقد عامل المناجم كثيرًا) بل في السادس من مايو عام 1945، لقيت حبيبته «تونيتشكا» مصرعها نتيجة لإصابتها برصاصة طائشة. أصبح الطحان بعد الحرب رئيسًا للجمعية الزراعية الموحدة - لم يظهر هذا لاحقًا في الرواية، انظر أدناه - فقد تم استبداله بأحد الإقطاعيين الذي كان نائبًا عن الحزب الزراعي في البرلمان. في الحقيقة، لم يكن من الواضح إذا كان من سلم المقاتلين إلى الألمان هو الطحان الذي كان يغار من «دك» أم زوجته التي كانت تغار من «تونيتشكا» التي كان أول ظهور لها في الرواية كفتاة عذراء- لبعض الوقت حتى الفصل السادس عندما استسلمت لأول قصة حب في حياتها، حيث كان ذلك مع بزوغ أول أكواز الذرة في حقولها- رغم أن الطحان قد قام بفض عذريتها وهي في الثالثة عشر من عمرها، ومنذ ذلك الوقت، كان يضاجعها مرة أو مرتين في الأسبوع ليتأكد أنه ما زال قادرًا على ذلك كلما كان هذا ممكنًا. ربما أيضًا لم تكن زوجة الطحان هي من أبلغت عنهم الألمان، ربما شخص آخر قد يرى أن القرية تعج بهؤلاء المخبرين الذين ينتظرون الفرصة المناسبة.

كانت النساء تكرهن «تونيتشكا» التي كانت تسير في شوارع القرية ونهداها يتراقصان على صدرها، بينما كان الرجال يكرهون «دك» الذي كان يتجول منذ سنوات قليلة في شوارع القرية، مرتديًا ملابس سكَّان المدينة ويتصنع الذكاء. لم يخفِ والده أبدًا آراءه الموالية للألمان – كان مبرره أن الإمبراطورية التي استمرت لألف عام هي البديل الوحيد للأمم معدومة الإرادة والثقافة، وأنه مدرك للخطر الذي يتهدد بلاده من جهة بلاد الشرق الموحلة– وتبريره لحقيقة انضمام ابنه إلى المقاومين هو أن أهل المدينة لم يعودوا يحترمون أي شيء بداية بعدم احترامهم لآبائهم. لم يقل «دك» للمقاومين بأن أباه قد التحق بالجيش الألماني على الرغم من أنه من المرجح أنهم يعلمون ذلك ولكنهم لم يكترثوا لهذا الأمر، فقد كانوا في الحقيقة عصابة من المتشردين الذين كانوا يلعبون دور رعاة البقر غير مقدرين للمخاطر الحقيقية التي يواجهونها، كما كانوا كل صباح يلتهمون الخبز الطازج الذي قدمه لهم خباز القرية على حساب كبير الخبازين، وربما هو الذي أبلغ عنهم الألمان، فقد كان يغار من «دك» أكثر من الطحان نفسه، وذلك لأن «تونيتشكا» لم تتجاوب معه أبدًا.

كتب «دك» هذا الكتاب في منتصف السبعينيات، ولكنه تردد طويلًا في أن يتخذ قرارًا بنشره. كان يشعر أنه سيكون كتابًا في غاية السوء. ولو لم يكن قد نوه لزميلات العمل - اللاتي كان يرغب في مضاجعتهن وهو ما لم يحدث أبدًا - عن موهبته في التأليف، لما صدر هذا الكتاب أبدًا. بعد ثلاثة أشهر، تسلم خطابًا من المحرر أحاطه فيه علمًا ببعض التعديلات اللازمة لإصدار الكتاب.

انضم إلى جماعتهم عامل المناجم «فينا»، أمَّا الطحان الذي تحول إلى إقطاعي كبير ثم أصبح نائبًا في البرلمان عن الحزب الزراعي وأيضًا راوي حكايات الأب، والذي تمت الإشارة إليه في مواضع قليلة وغير محورية في مخطوط الكتاب، فقد تمت ترقيته حيث صار عضوًا في الحزب الشيوعي، ومات قبل اندلاع الحرب بفترة قصيرة نتيجة استخدام الشرطة للعنف أثناء استجوابه في أحد التحقيقات.

عرض المحرر على «دك» ثلاثة أسماء مستعارة ليختار واحدًا منها- قال إن اسم «فكتور دك» يبدو

اسمًا مستعارًا مشكوكًا في صحته- وفي الوقت نفسه، قدم له العقد. صدر الكتاب باسم «فكتور ياري»، لم يحدث الكتاب أي ضجة ما عدا بعض التقييمات على صفحات الصحف المضطرة للاهتمام بهذه الأمور.

حصل «دك» على مكافأة بقيمة 14800 كرونة، دفع ثلثيها إلى السباكين لإصلاح الحمام والمبلغ المتبقي دفعه لطبيب الأسنان الذي يقوم بعلاج أسنانه.

ولكن الحياة مليئة بالمفاجآت والصدف التي تصبح جزءًا من الواقع الملزم. فبعد سقوط النظام المكروه وإقامة دولة مستقلة حرة، أخذ بعض الناس من التليفزيون يبحثون عن «دك»، وعرضوا عليه المشاركة في كتابة وتمثيل فيلم وثائقي في إطار مسلسل يتم الإعداد له باسم «الأقدار»، فقد كشف شخص ما من العاملين في دار النشر لأحد معارفه في التليفزيون حقيقة شخصية والد «دك». حياة «دك» المملوءة بالأحداث الدرامية، فالأب نازي والابن عضو في كتائب المقاومة ضد النازية، والذي أصبح لاحقًا موظفًا متواضعًا وأديبًا فاشلًا. جذب هذا الموضوع مُدَوني هذه الحقبة الجديدة من التاريخ والداعين إلى المراجعة الدقيقة لحقب الماضي.

(15)

تثاءبت السيدة «بروخازكوفا» ثم أدخلت قدميها بصعوبة في نعلها وطقطقت مفاصل ركبتها، فردت ظهرها ثم توجهت إلى الحمام. نَفثْ وتمخضت في الحوض، مالت إلى المرآة ثم نزعت بالملقاط بعض الشعيرات من ذقنها ومسحت العماص من عينيها. صبت في كأس أحمر محلولًا أخضر للغرغرة وقامت بمضمضة فمها به.

فكرت للحظات هل تريد أن تتبول أم لا- استيقظت هذه الليلة ثلاث مرات لتتبول. شدت السيفون في شرود تام. ذهبت إلى المطبخ، صبت مشروبها الصباحي وأخذت من الكيس البلاستيكي قطعة خبز تشبه الكعكة ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة، اقتربت من النافذة ثم فتحتها على مصراعيها ونظرت إلى الخارج. كان السيد «براجاك» الجالس على الأريكة في آخر الحديقة يتحدث إلى رجل لا تعرفه. عادت السيدة «بروخازكوفا» مسرعة إلى المطبخ وأمسكت بالكعكة وكأس المشروب وأسرعت عائدة إلى غرفة المعيشة وهي تشعر بالإثارة. دفعت بالمقعد في اتجاه النافذة، جلست عليه ثم أخذت تسترق السمع لما يحدث في الخارج.

قال السيد «براجاك»:

- إن الناس اليوم أصبحوا ينتقدون كل شيء.

- وفي الماضي أيضًا.

- ولكن اليوم أكثر.

- أتظن ذلك؟

- لنقل هذا بصورة أخرى. اليوم مسموح بذلك.

- اليوم مسموح بكل شيء.

- ولكن غير مسموح لي أن أقوم بصفع أحد هؤلاء الصغار الأوغاد.

- غير مسموح بذلك.

- يُسمح لك فقط بالتحدث معه.

- نعم هذا مسموح.

- اليوم يدلي كل بما في داخله.

- تقريبًا الكل.

- في التليفزيون يسألون كل أحمق عن رأيه.

- معك حق.

- يستضيفون ستة حمقى ويسألون كلًا منهم عن رأيه.

- حسنًا، ربما حتى لا يسألونه عن رأيه.

- ورغم ذلك، لا أحد يحاول أن يشغِّل عقلَه.

- في الماضي أيضًا لم يكن يحدث هذا.

- في الماضي كان الناس على الأقل يفكرون.

- أتظن ذلك؟

- كانوا يفكرون بشكل ما.

- حسنًا، يفكرون..

- لم يكن مسموحًا بذلك ولكنهم كانوا يفكرون.

- لا أعرف إذا كان يمكنني أن أسمِّي هذا تفكيرًا.

- ربما لم يكونوا يفكرون كما كانت تخيل إليهم الأشياء المختلفة.

- يحدث هذا اليوم أيضًا.

- اليوم لا يتخيل أحد شيئًا، الكل يتكلم فقط.

- هذا ما تفعله الديمقراطية.

- في الماضي، لم يكن مسموحًا بذلك.

- فعلًا.

- اليوم الكل يتكلم ولا أحد يسمع.

- أليس كذلك!

- الجميع يقولون فقط آراءهم.

- حسنًا، آراؤهم..

- معك حق. هم لا يقولون آراءهم ولكنهم يتكلمون في كل شيء. كل أحمق يتكلم. في الماضي كان

يتكلم فقط بعض الحمقى.

- إنها الديمقراطية.

- بينما كان يصمت الآخرون.

- ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا غير ذلك؟

- ورغم ذلك، كان هذا يخفي شيئًا في داخله.

- نعم كان يخفي شيئًا.

- كان هناك الكثير من الحمقى، ولكن أغلبهم كان يلتزم الصمت.

- معك كل الحق.

- وهل هذا حقًا من الديمقراطية؟

- نعم هو كذلك.

- الكُلُ يتكلم ولا أحد يسمع؟

- نعم.

- إنها ديمقراطية غريبة.

- علينا أن نقبل بذلك.

- ربما ليست غريبة، ربما العكس هو الصحيح وأن هذه هي الديمقراطية الحقيقية.

- هذا ليس مستبعدًا على الإطلاق.

- أن الجميع يتكلمون ولا أحد يسمع.

- هو كذلك.

- اسمع، لا أريد أن تعتقد أنني لست ديمقراطيًّا ولكنني على الرغم من ذلك..

- على الرغم من ذلك هذا ما سنتفق عليه.

- الجميع يتكلمون وعلى الرغم من ذلك ليس لديهم ما يقولونه.

- ولكنهم لا يعرفون ذلك.

- ما الذي لا يعرفونه؟

- إنه ليس لديهم ما يقولونه.

- لا يمكنك أن تطلب هذا من هؤلاء الحمقى.

- بالطبع لا.

- لن يطلب أحمق من أحمق آخر أن يعرف أنه ليس لديهم ما يقولونه.

- بالتأكيد لا.

- أترى، أستطيع أن أتكلم وأتكلم ولا أقول شيئًا، ولكنني إذا أردت أن أشعل سيجارة في غرفة انتظار الطبيب أو تهذيب أحد الأشقياء فهذا غير مسموح به.

- غير مسموح.

- في وقتنا نحن، كان مسموحًا بذلك.

- كان مسموحًا بذلك.

- هل هذا من الديمقراطية؟

- إنه لم يكن مسموحًا بذلك؟

- نعم.

- حسب الموقف. فلو أنك كنت مكان هذا الشقي..

- الآن تتكلم بالطريقة التي يتكلمون بها في التليفزيون.

- لا تقل هذا.

- أنا لا يمكن أن أكون مكان هذا الشقي لأننا تربينا جيدًا.

- معك حق.

- الآن يتحدثون فقط عن حقوق الإنسان، ولكن لا يوجد أي نوع من أنواع التربية.

- هذه الكلمة كادت أن تُنسى.

- اليوم لم يعد بإمكاننا أن نصفع حتى أطفالنا.

- يمكنك أن تصفع أطفالك ولكن بحذر.

- اسمع، لقد تعايشت بنفسي فترة الحرب.

- بالتأكيد كانت هذه أوقاتًا عصيبة.

- ليس بالضبط فترة الحرب ولكن فترة التعبئة.

- حتى هذه.

- أربع ليالٍ في الثكنات العسكرية، واثنان وأربعون رجلًا في غرفة واحدة.

- يا له من عدد كبير.

- عندما كانت تُطفأ الأنوار، كنا نتسابق من منا يُصدر أعلى ضرطة.

- كانت المسابقة في البداية هو من يصدر أكثرها نتانة وعفونة، ولكن بعد عدة محاولات، تبين أن هذا الأمر غير ممكن، فكل هذه الروائح الكريهة تندمج في رائحة واحدة.

- كنا جميعًا صغارًا.

- وعلى الرغم من ذلك، لا بد أن أخبرك بشيء، وهو أنه في زماننا، كان هناك معنى للحروب.

- كل حرب لها هدف، ولكننا لا نعرف بالضبط ما هو.

- اليوم عندما يقوم أحدهم بإخراج الريح من مؤخرته، فهذا التصرف يصبح ظاهرة منطقية.

- اجتماعية.

- حسنًا، في أيامنا، كانت الحروب إما عادلة أو ظالمة، ولكن في المجمل، كان لها معنى وليست مثل اليوم.

- الزمن تغير.

- على سبيل المثال، طالبان.

- طالبان كان يا مكان.

- ماذا تقول؟

- لا شيء، فقط القافية حكمت.

- أها، ولكن من فضلك أي نوع من الحروب هذه؟

- معك حق، هذا النوع من الحروب لم يكن موجودًا في الماضي.

- انظر إلى شباب اليوم، إنهم مثيرون للضحك.

- هكذا كانوا دائمًا.

- إنهم لا يجيدون حتى الضراط، فما بالك إذا ما طُلب منهم هذا.

- أحيانًا يكون هذا الأمر صعبًا.

- ولكنهم يبدون رأيهم في كل شيء.

- أنت تعرف ذلك، إنهم شباب.

- اليوم يعرف الجميع مسبقًا ما الذي يجب أن يفكروا به.

- حسنًا، يفكرون..

- أو يقولون.

- أرجح هذا.

- ولكن لا أحد يستمع إلى الآخر.

- لم يعد أحد يعرف ذلك.

- ذات مرة، جاء إلى أعضاء منظمة «المسيحيون الجدد» الدينية «سفيدكوفا يفوهوفي».

- «يفوهوفي».

- وقالوا إن اليوم لم يعد أحد يستمع لأحد. مثلما نفعل نحن.

- نحن نستمع.

- ولكننا نقول إنه لا أحد يستمع لأحد.

- نعم نقول.

- وعندما قلت لهم بأن يقولوا ما يشغلهم، فأنا أجيد الاستماع إلى الآخرين لأنني حصلت على قدر من التربية، وليس كما هو الحال اليوم..

- لقد أصبحت هذه الكلمة اليوم تقريبًا في طي النسيان.

- بالضبط، ولكنني عندما قلت لهم ذلك، قالوا إنه يمكنني أن أجد كل ما أريده في الكتاب المقدس، وأرادوا أن يبيعوا لي نسخة منه بمائتي كرونة. قالوا إنني سأجد طريقي في هذا الكتاب. قالوا إنني لو اشتريته من المكتبة، سأدفع فيه على الأقل ثلاثمائة كرونة.

- الأسعار ترتفع باستمرار.

- ولكنهم لم يريدوا أن يتكلموا.

- هذا شيء نادر الحدوث هذه الأيام.

- ربما لم يكونوا ينتمون لمنظمة «المسيحيون الجدد» «سفيدكوفا يفوهوفي».

- «يهوفوفي».

- ربما كانوا من جماعة «المورهن».

- «المورمون».

- حسنًا.

- ولكن هؤلاء لا يؤمنون بالكتاب المقدس، هؤلاء لهم كتابهم المقدس الخاص بهم.

- لكن الكتاب المقدس واحد فقط.

- واحد مقدس ولكن توجد كتب أخرى.

- إذا لم يكن هؤلاء من جماعة «المورهون».

- «المورمون».

- حسنًا.

- تقريبًا لا.

- ربما كانوا من جماعة «اليوم السابع».

- «الأدفنتست السبتيون».

- حسنًا، اليوم يستطيع أن يتكلم كل أحمق.

- هذه حقيقة.

- إذا كانت هذه هي الديمقراطية..

- هي.

- ربما معك حق، ولكن ما الفائدة من ذلك؟

- إنه شيء ديمقراطي.

- هذا فقط.

- سنتفق على ذلك.

- قال هذا الرئيس في الإذاعة بإن الديمقراطية تراهن على الذكاء.

- هذا ليس شيئًا غبيًّا.

- حسنًا، ليس غبيًّا ربما لا، ولكن كم من الأذكياء في هذا البلد؟

- قليل.

- أرأيت؟

- ربما تكون على حق.

- لست ضد الديمقراطية، ولكنني أرجح المراهنة على الحماقة وليس على الذكاء.

- سيكون هذا أسهل.

- في أيامنا، لم تكن الناس تتكلم كثيرًا.

- كانت فرص الكلام أقل.

- اليوم يتكلمون في كل مكان، في الإذاعة وفي التليفزيون. يصمتون فقط في الطوابير، في الطوابير، لا أحد يتكلم هناك الكل يلتزم الصمت.

- معك حق.

- يقولون إن الكلام يُطيل العمر، قالوا هذا في الراديو.

- لا تقل هذا.

- أنا لا أصدق هذا، فالناس يجب أن يصمتوا.

- يُفضل أن يفعلوا هذا في أغلب الأحيان.

- في أيامنا، لم يكن الناس يتكلمون. كانت النساء تقفن في الطوابير وأظل أنا هنا باستمرار.

- تبدو بحالة جيدة.

- اليوم، الناس يجادلون في كل شيء، مع الأطفال ومع الزوجة. أما في أيامنا..

- كان كل شيء أسهل.

- كان الناس يصمتون ولذلك لم يكن هناك مبرر للطلاق، ولكن اليوم أصبحت كل الزيجات تنتهي بالطلاق.

- بالفعل، حالات الطلاق في ازدياد مستمر.

- «طالبان» منعت الطلاق تمامًا.

- منعت أشياء كثيرة.

- لقد قالوا في التليفزيون إن المسلمين وخاصة هؤلاء الملتحين يمكنهم شرعًا أن يضربوا زوجاتهم ضربًا مبرحًا إذا لم تطعهم. يقولون إن هذا مذكور في القرآن.

- ضربة أو ضربتين.

- ماذا؟

- آسف، كنت أحاول أن أمزح.

- أها، يقولون إن هذا مذكور نصًا.

- يقولون ذلك.

- إنك تستطيع أن تضرب زوجتك ضربًا مبرحًا.

- زوجاتك.

- نعم نعم، هم لديهم أكثر من زوجة.

- أنت تعرف المثل القائل: «بلاد مختلفة عادات مختلفة».

- ولذلك فهم أيضًا ملتحون.

- هذا مفروض عليهم.

- ويقولون إنه يستطيع أن يقتل ابنته إذا أقامت علاقة مع شخص ما. بصورة شرعية. أقصد أن تقيم علاقة غير شرعية ولكنه يقتلها شرعًا إذا أقامت علاقة غير شرعية.

- لا أعتقد أن هذا يمكن أن يحدث.

- قالوا هذا، أعتقد أنهم يبالغون. من الممكن توجيه صفعة رغم أنني لا أقول بذلك ولكن قتل الابنة..

- كما تعرف.. بلاد مختلفة.

- ولكن من ناحية أخرى، فأنا إن كان لديَّ ابنة وانحرفت وأقامت علاقات حتى مع الغجر..

- هذا غير جائز في بلادنا.

- أنا بالطبع لن أقتلها كما تعتقد، ولكن استمع لما أقوله حتى لا ء فهمي، بل سأود أن أضربها حتى لا تتمكن من الجلوس أربعة عشر يومًا.

- هذا غير جائز أيضًا.

- ولا حتى مع «طالبان».

- وخاصة إذا كانت قد بلغت سن الرشد.

- بلغت السن أو لم تبلغها، المرأة هي المرأة.

- لا يمكن المجادلة في هذا الأمر.

- يمكنني أن أقول ذلك. انظر. هل ترى هذا الواقف هناك؟ لقد قلت لك هذا من قبل.

- هذا الغجري؟

- إن عددهم في ازدياد مستمر.

- لقد كانوا موجودين باستمرار في هذا الحي.

- إنه يكتب شيئًا على الجدار.

- معك حق.

- لم يكن هذا جائزًا في وقتنا.

- بالطبع لا. عليَّ الآن أن أنصرف.

- لماذا؟ حسنًا، على الأقل تحدثنا معًا لبعض الوقت.

- معك حق. كان الحديث معك لطيفًا جدًا.

- رغم أنني لم أرك هنا أبدًا من قبل، أليس كذلك؟ أنا اسمي «براجاك».

في هذه اللحظة، التصق بالسيدة «بروخازكوفا» قط يُدعى «بنديا» وأخذ يتمسح في ساقها. لذلك فقد انتفضت السيدة «بروخازكوفا» التي كانت في شدة التركيز والتشوق، ولهذا فقد فاتتها الكلمات الأخيرة من الحوار.

- اسمي «لبيدا»، «وليام لبيدا».

(16)

ظهرت على الجدار كتابة جديدة بلغة الغجر: «أشاردي أماري بوتي»: «أيتها الثيران المخصية». سيتوقف شركاء الوطن من أصحاب البشرة الداكنة أمامها من وقت لآخر في الأسابيع المقبلة للتسلية. أمَّا بالنسبة لشركاء الوطن من أصحاب البشرة البيضاء، فجوهر هذه العبارة يظل غير مفهوم لهم فيما عدا صيغة النداء التي كُتبت بالتشيكية «أيتها الثيران المخصية»، ولكنهم أحسوا بأن صيغة النداء هذه موجهة إليهم. انطلق المفتش «لبيدا» في أثر هذا الخطاط المجهول.

منذ سنوات، لم تكن هناك أي علامات تشير إلى أن «وليام لبيدا» المولود عام 1958 سيصبح محققًا ناجحًا، فقد وُلِد لأبوين من الطبقة البرجوازية تغلب عليهما الناحية الإنسانية. كانت الأم يهودية تنحدر من مدينة «بودابست»، وكان والداها اللذان نُقلا على متن آخر سفينة مجرية إلى معتقل «أوشفيتز» يمتلكان شركة لتجارة القبعات. أما الأب فكان ابنًا لأحد المعلمين التقدميين من مدينة «ناخود» التشيكية. كلاهما، الأم والأب، قررا أن يشاركا في التحول الذي حدث في مجتمع ما بعد الحرب، فغرسا في ابنهما الوحيد هذا المبدأ الرائع: إن الإنسان في جوهره مخلوق طيب، ويجب أن يساعد الناس بعضهم بعضًا دون أن يكون هناك مصلحة من وراء ذلك، وإذا ساعد الناس بعضهم بعضًا بلا مصلحة، فسوف ينتقل العالم إلى حقبة تاريخية جديدة والتي لن تكون مجرد حقبة ولكن فئة جديدة. لكنهما في وقت لاحق، وعندما اقترب أجلهما، شعرا بعظيم الأسف على ما غرساه في طفلهما ليواجه به الحياة، لكن بعد فوات الأوان.

كان «وليام» الصغير يحصل على الدرجات النهائية في دراسته، يساعد كبار السن في عبور الطريق، يدافع عن الضعفاء، ويحتج بقوة إذا لاحظ وقوع ظلم على أحد. كان مسعفًا جيدًا في منظمة الصليب الأحمر. كان يحمل المخلفات الورقية إلى مكان تجميعها ويحضر النقود لوالديه، يساعد زملاءه المتعثرين في الدراسة في مذاكرة دروسهم، يمر على جيرانه ليجمع التبرعات لصالح صندوق التكافل، كما كان ينصح السكارى المترنحين أمام بار المدينة والمدخنين الذين يسعلون على المقاعد الخشبية بالقرب من الحديقة العامة. كان يذهب كل سبت لمؤسسة المكفوفين ليقرأ لهم رواية «إيفانهو» ومن باب المعرفة، تعلم أيضًا لغة الصم والبكم تحسبًا إذا صادف أحدهم. أما إذا وجد من وقت لآخر رغبة في ممارسة بعض الألعاب، فبالقطع كان يمارس الألعاب التي تنقي الروح وتقويها. كان ابنًا مثاليًّا ورائدًا نموذجيًّا، وفي عام 1968، أصبح أيضًا كشافًا نموذجيًّا، كان المفضل لدى المسنات المريضات ولدى أعضاء هيئة التدريس ولدى مكفوفي مدينة «براج». كان مثاليًّا في تمشيته للكلاب لقضاء حاجتها، يأخذ إلى بيته الطيور المصابة والحَمَام المصاب والضفادع الجائعة. كان يعزف على «الكمان» و«الهارمونيكا»، وفي سن الخامسة عشرة، نظم الشعر وكتب أبياتًا عن السماء الملبدة بالغيوم التي يخترقها فجأة شعاع الشمس الحاد كشفرة الحلاقة. كان عاجزًا عن التواصل التقليدي مع الناس، فقد كانت حاجته لأن يكون نافعًا على مدى أربعة وعشرين ساعة في اليوم ونظراته الحريصة على إظهار كل التفهم والحب للإنسان ولغته الفصحى التي لا تُحتمل تجعل كل إنسان عادي يُعرض عنه بعد عدة دقائق من معرفته. كان مثالًا حيًّا على استخدام كلمات قديمة مثل: «أعطني كسرة من الخبز، فأنا أود أن أقضم شيئًا» أو «بالأمس أصابتني اللعنة». كرس حياته

للبشرية وللأفراد أو للأفراد والبشرية. فلو أنه وُلد قبل هذا بعدة قرون، لأصبح «فرانسيس الأسيزى» أو «بارتولومي دي لاس كاساس»، ولكنه وُلِد في «تشيكوسلوفاكيا» الشيوعية في بداية السبعينيات. وفي العشرين من عمره، كان يتعرض للسباب.

نعتوه بـ «الثور المتحمس». كان يتعرض لهذه الإساءة من زملاء الدراسة ومن السكارى ومن ضحايا الظلم الذين كان يساندهم ويجحدون فضله، ولكن كل هذا لم يجعل «وليام» الصغير يتراجع عما يفعله وكان يقول: «التعامل مع الناس يحتاج إلى الصبر».

عندما بدأت هرمونات المراهقة تسيطر عليه- الطبيعة تفعل ما تريد - اكتسبت هذه اللعنة بعدًا جديدًا. فقد كان كل من يشكلون هدفًا محتملًا لإطفاء رغبته الجنسية يفرون منه فرارًا جماعيًّا بمجرد ظهوره. كان يرسل للفتيات خطابات حب، يحاول أن يغني لهن، ينظم لهن شعرًا على قافية «ألكساندرين»، أن يعزف لهن على الكمان، ولكن كان كل هذا بلا فائدة ولم يصل أبدًا لغرضه. بلا جدوى، حاول أن يخفض سقف طموحاته، وتوجه تدريجيًّا إلى أكثر ثلاث فتيات قبحًا في المدرسة الثانوية وقال لهن: «كل منا ليس لديه القدرة على الوصول إلى ما يريد، فلنجمع أرواحنا معًا». بلا جدوى، حاول الانضمام إلى الكشافة، أو إلى رحلات التزلج على الجليد. كما حاول عبثًا الانضمام إلى جماعة صغار الأثريين أو إلى حُماة البيئة أو إلى جماعة أصدقاء اللغة التشيكية.

لم يكن «وليام» غير قادر فقط على التواصل مع الفتيات الشابات، بل ازداد هذا الخجل الاجتماعي ليصل إلى علاقاته بالأشخاص البالغين. فقد كان حتى الآن يعتمد في حديثه مع الناس على كونه ما زال طفلًا بريئًا، وأن ما كان يعتبره الناس من أن طريقة حديثه هذه هي نوع من أنواع الارتباك العقلي اللطيف التي يمر بها الأطفال في مرحلة الطفولة، والتي لا تخفي وراءها أي نوع من سوء النية، اعتبروه بعد ذلك نوعا من أنواع الاستفزاز المقصود والمتعمد من جانب هذا المراهق. فعلى سبيل المثال، إذا قرر «وليام» الشاب أن يتعامل مع أحدهم بود وصداقة، فإن هذا الآخر يحكم على تصرفه هذا بأن «وليام» يستهزئ به. فإذا سأل مثلًا بائع الخضروات: «هل لك أن تتعطف وتزن لي من فضلك ثلاثة كيلو جرامات من هذه البطاطس الجديدة؟» فكان الرد هو أن يصفع هذا البائع الباب في وجهه دون أي تردد. وإذا ذهب إلى إحدى المكتبات وسأل بدماثة: «من فضلك هل لي أن أتصفح قليلًا هذا الكتاب الذي يبدو شيقًا جدًا؟» فقد كان في أفضل الحالات يستمع إلى كلمات مثل «أيها الشاب توقف عن هذا الاستفزاز».

بدأ كل شيء يرتبك.

صُعق «وليام» من هذا الذي يحدث. لقد كان معتادًا منذ زمن طويل على وجود نوع من عدم التفاهم بينه وبين الناس، ولكنه توقع أن يتغير هذا بمرور السنين، وأن الناس سيستمعون إليه بإنصات واهتمام ولكنه لم يستطع الانتظار حتى يبلغ. الآن ورغم كل التوقعات، وجد أمامه سؤالًا صعبًا يطرح نفسه: كيف يمكن أن يعيش بين الناس ويكون نفسه؟ لكنه بعد فترة، فقد الأمل وزاد وزنه، زاد وزنه في هذه الفترة عدة كيلو جرامات لم يستطع فيما بعد التخلص منها بشكل كامل.

وأخيرًا، أقام أول علاقة جنسية له مع جارته التي تعاني مرض الكساح وتبلغ من العمر ثمانية

وثلاثين عامًا وتقيم في الدور الرابع، حيث كان يشتري لها حاجاتها.

ثم يقولون إن الإنسان لا يتقاضى أجرًا على ما يفعله من خير.

لقد تمكن من الحصول على الثانوية العامة بسهولة مثلما اجتاز امتحان القبول في الجامعة. تم طرد كلا والديه من الحزب عام 1969، ولكن بعد مرور 7 سنوات على ذلك، هدأ الأمر كثيرًا. عاد الأب ليعمل بجد من أجل عودته مرة أخرى. كان يقول لزوجته وابنه: «أنا أفعل هذا من أجلكما». بينما كانت الأم منذ سبع سنوات تمارس عملها كربة منزل بعد أن تم طردها ليس فقط من الحزب ولكن من الإذاعة حيث كانت تعمل موظفة بها في فترة الثورة المضادة.

كان مستقبل الأسرة يقع على كاهل الأب، ولكن الزوجة لم تقدر أبدًا تضحيته بل وعلى العكس كانت تقول إن هذه التنازلات ليست من طبع الإنسان الشريف.

تضاعفت المشاجرات بين الوالدين، وعندما أصبح «وليام» في الفرقة الأولى من الجامعة، سافرت الأم إلى أقاربها في المجر وأقامت هناك بشكل دائم. كانت تكتب لـ «وليام» خطابات طويلة تعتذر له أنها لم تقدم له التربية التي تساعده على العيش بين الناس - ليس بالضرورة الأشرار منهم ولكن الناس بكل طبقاتهم - وحثته على أن يُطيع والده ويتبع نصائحه. كان «وليام» يسافر بانتظام لزيارة والدته حتى تُوفيت بشكل مفاجئ في سن الثالثة والثمانين، عندئذ كان يعمل موظفًا في معهد بحوث أنظمة التحكم والتشغيل الآلي.

عمل على تغيير نفسه بشكل هائل: توقف عن إزعاج السكارى، ترك عضوية الصليب الأحمر، وطوال فترة دراسته الجامعية، لم يلمس الكمان ولم يَشُد على يد كل واحد عند مقابلته. تقبل الوضع القائم بأنه يوجد في المجتمع أناس يشربون الكحوليات، أطلق لحيته وبدأ يُدخن البايب، توقف عن إغراء الفتيات الشابات بأن يذهبن معه إلى المعارض الفنية بل أصبح وبشجاعة كبيرة يدعوهن لأن يذهبن معه إلى المقاهي. تعلم أن ينطق كلمات عامية مثل «عربية» «هَبَلْ» «في داهية»، وخفض عدد الكلمات التي كان ينطق بها في إطار هذا النوع من التواصل إلى النصف. وعندما كان يشعر أنه في حالة غير عادية، كان يَجْرؤ على أن يستخدم من وقت لآخر وبشكل غير ملحوظ النهاية العامية للصفات، وذات مرة، حاول استخدام الصيغة العامية لتصريف فعل «يكون» في أسلوب الشرط ولكنها حُشرت في حلقه.

لم يتخلَ «وليام» عن إيمانه بعالم أفضل، ولكنه أدرك هذا العالم لن يتم الوصول إليه بشكل مستقيم ومباشر. العالم الأفضل يتم الوصول إليه بالطرق الملتفة، بعدم المباشرة بالمحاور والدوائر، بالمواربة والسطحية، وبقدر معين من الازدواجية والنفاق. وعندما وصل إلى هذه القناعة، قرر «وليام» أن يضحي ببعض المثل الثانوية.

في عام 1991، وجد خبرًا عن مسابقة عن وجود أماكن شاغرة لمحققين جنائيين، فقال إن هذه رسالة بعث لي بها القدر. وبلا أسف، ترك مكانه الهادئ والآمن في معهد بحوث أنظمة التحكم والتشغيل الآلي. اجتاز المسابقة بسهولة شديدة كما هي عادته، وبعد ذلك بعدة أسابيع، تسلم وظيفته. مع الوقت، تمكن في وظيفته الجديدة من أن يكوّن لنفسه سمعة بأنه إنسان ذو قدرات، خاصة أنه إلى

حد ما يميل إلى العزلة. بقي له من هواياته السابقة تردده على الحفلات الموسيقية، وحل الكلمات المتقاطعة في المجلات، وأيضًا نظم الشعر لسعادته الشخصية.

كان والد «وليام»، الذي هو الآن من أصحاب المعاشات، يتابع بسعادة كيف يتحول ابنه إلى إنسان عادي، وعندما بلغ «وليام» الأربعين من عمره، قرر أن يعامله رجلا لرجل وأن يُفضي له بسر كان يحمله في صدره لسنوات طويلة.

إن ل- «وليام» أخ غير شقيق من امرأة كان والده على علاقة بها، وكانت تُسمى قبل زواجها «أنجكا سوخروفا». بعد مرور سنوات عديدة، التقى بها صدفة في الشارع، كان حينئذ متزوجًا من والدة «وليام»، بينما هي متزوجة من رجل يُدعى «فيكتور دك». تبادلا أطراف الحديث، وكلمة بكلمة تحولت بعدها الكلمات إلى لقاءات تتم يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع من الرابعة والنصف إلى السادسة. ولأن المثل يقول «من جاور الحدَّاد اكتوى بناره» فقد اتصلت به بعد عدة أشهر في مكان عمله لتؤكد له بحماس أن هذا المثل القديم تحقق، وشددت عليه أن يحتفظ بهذا الأمر لنفسه وألا يحاول أبدًا أن يتصل بها.

بعد أن كشف الأب لابنه عن هذه الحلقة السرية من حياته المستقرة نسبيًا، أصيب بنزلة برد شديدة تحولت إلى أنفلونزا فارق على إثرها الحياة.

(17)

قال العجوز للشاب:

- هل من جديد؟ أعتقد أن الوقت حد حان.

- إذا كنت تظن أن الأمر سهل..

- معذرة، هذا أمر لا يهمني. في البداية، قلتَ شهرين أو ثلاثة.

- وصلني شيء بخصوص هذا الموضوع، استعجال.

- هذا أيضًا لا يهمني. ما الجديد؟

- ربما حدث شيء ما. في جبال «كروشني هوري» بالقرب من قرية «سفاهوفا».

- نعم؟

- كان هناك مأوى للمشردين. حجرة واحدة، بوتاجاز، سرير، منضدة، أريكة، كرسيان قديمان. مرحاض جاف، بلا مياه، يبعد عن المياه بحوالي مائة متر. يقال إن مجموعة من المشردين استولوا على المكان بعد الحرب مباشرة. لكن الشرطة في الخمسينيات تصدت لهم، وفي الستينيات، عادوا مرة أخرى، ليس هم تحديدًا، مجموعة أخرى. المأوى حاليًا مهجور.

- و؟

- الفوضى تعم المكان. ولكنني وجدت أسفل السرير حقيبة رثة وبها صُحفٌ من الأعوام 1962 و1963 و1964 و1965.

- وماذا بعد؟

سحب الشاب من الحافظة عددًا أصفر اللون من مجلة «ملادي سفيت» Mladý svět.

- وبينها هذه.

- كن حذرًا وإلا تمزقت بين يديك.

تصفح العجوز المجلة متمهلًا.

- صفحة 16. دورية الشطرنج.

بحث العجوز عن الصفحة ثم نظر إليه بازدراء.

- قلت لك «هوشكا»، «فيت هوشكا». هذا شخص ما اسمه «كارِل هوسكا».

- أعرف هذا، ولكن العام هو نفسه، 1963، والمكان كذلك، «ماريانكي»، والشهر أيضًا، ديسمبر.

- يا إلهي. أخبرتك «هوشكا» وليس «هوسكا». «فيت» وليس «كارِل». ولم أقل ديسمبر، بل قلت نوفمبر. والأهم، هل ترى هنا أي ملاحظات؟

- حسنًا بالأسفل. الفريق الأبيض يحاول، والأسود صامد هناك.

- ملاحظات مكتوبة بيده. قلتُ لك «هوشكا»، نوفمبر، ملاحظات بخط اليد.

- انظرْ إلى نفسك، أي عميل أنت. إذا كنت تعتقد أن الأمر سهل..

- أنا لا أهينك. بالعكس. أقول «هوشكا»، نوفمبر، ملاحظات بخط اليد، عقلك في رأسك.. استخدمه.

- أنا أقوم بهذا العمل منذ ثلاثين عامًا. لا يجب أن تعظني.

- الناس يتصرفون بجنون.

- أنت تظن نفسك ذكيًا، أليس كذلك؟

- الحمقى يفسدون حتى الهواء.

- أهكذا تظنني؟

- على الإطلاق. هذا مُقْتبس من الإنجيل.

(18)

لا بد أنه كابوس، ومع ذلك لم يبدأ بشكل مزعج. خرج «دك» الابن من القطار، ووجد نفسَه في محطة مجهولة. كان لديه شعور غير مؤكد أنها ليست صدفة، وأن هناك من ينتظره، لم يقلقه كثيرًا كونه لا يعرف من ينتظره. سيتذكر بمرور الوقت.

كانت تُمطر.

وضع «دك» الابن شنطة السفر على الرصيف الخرساني المبتل. وبحركة معتادة، تحسس جيبه وأخرج سيجارة، وضعها بين شفتيه، وبراحة يده اليسرى، حجب عنها الهواء، وبإبهامه الأيمن، أشعلها بولاعة ألمانية منقوش عليها أحرف ذهبية (هدية من إحدى عشيقاته)، لم تفلح في إشعال شيءٍ آخر. أشعل سيجارة أخرى.

توهجت السيجارة بشكل خافت. تنفس بعمق، فاشتعلت السيجارة بقوة. وفي اللحظة التي أعاد فيها الولاعة إلى جيبه، سقطت نقطة ماء على السيجارة على بعض المليميترات من السيجارة. انخفضت السيجارة منحنية، تمزق ورقها المشبع بالماء ووجدت النهاية الساخنة طريقها إلى ذقن «دك» الابن الذي أراد دون وعي منه أن ينْصِبُها ويُنقذ ما يمكن إنقاذه منها، وبحركة غير محظوظة، ألصقها بأنفه وأحرق أصابعه. أطلق اللعنات في سره، وبضيق، بصق عقب السيجارة غير المفيد. تحرك القطار متبخترًا وغادر بحذر كأنه يخشى الانزلاق على القضبان المبتلة.

جذب شنطة السفر وخطا نحو مبنى المحطة. وللحظة، ساوره الشك إذا ما كان قد أخطأ في الميعاد والمكان، لم يهبط من القطار أحد غيره. صالة مبنى المحطة خالية إلا من عاملة النظافة التي سكبت تحت قدميها دلوًا من الماء المتسخ وتفحصته بنظرة حادة. كان ماء المطر يغمر ياقته ورقبته. ومن محطة الأتوبيسات المقابلة، تحرك آخر أتوبيس، ليس به أي راكب. انعطف واتجه نحو «دك» الابن الذي رفع يديه بتردد. ازدادت سرعة الأتوبيس ومر بتهور على حفر الطريق والوحل المحيط به فشكل أمام مخرج المحطة خطًا ممتدًا. أراد «دك» الابن أن يسب، ولكنه أعاد التفكير، سائق الأتوبيس حذره في المرآة الخلفية و«دك» الابن لم يكن يرغب في أن يُصفع بسبب شتائمه.

حسنًا، سيذهب مشيًا. ما المسافة التي يستطيع قطعها؟ على الأكثر 6 أو 7 كيلو مترات.

بالتأكيد ضل الطريق. نفدت سجائره، أصابه الجوع والعطش. آلمته ساقاه، حمل الشنطة يزداد ثقلًا. أو ربما الشنطة. كانت هناك غابة. مشى عبر ما بدا وكأنه طريق. وبالتدريج، تحول المطر إلى عاصفة. غلفت السماء طبقة زرقاء كئيبة تومض باستمرار.

ارتبك لأنه لم يعد يصل إلى سمعه أي صوت، لا صوت الرعد، ولا حتى المطر. حتى إنه كان يسمع صوت خطواته بغير وضوح، بغموض، وكأنها تأتي من مكان آخر.

كم كيلو مترا قطع؟ كادت قدماه تتعثران.

ولكي ينهمك في سيره الإجباري، بدأ المحاولة في تذكر كل الأقوال المأثورة التي يعرفها ووردت بها كلمة «قدم»: «مكان لم تطأه قدم»، «قدم في الدنيا وقدم في القبر.

«يقف على قدم الحرب»، «قدماه لا تحملانه». «يمشي بقدمين ثقيلتين ثقل الرصاص».

أخذ يمشي مجهدًا لمدة نصف ساعة، ربما ساعة، وربما ساعتين. فقد الإحساس بالوقت. استمر في ترديد هذه الأقوال المأثورة: «استنزف قوة قدميه. تحركت الأرض تحت قدميه، عندما فقد إحساسه بقدميه، استخدم ذراعيه، يضع قدميه على كتفيه» (كناية عن شدة السرعة)، «بنى كتفيه» (بنى عضلاته)، «لا يستطيع لمس كتفيه». ثم بعد ذلك، بدأ يردد الأمثال التي تتناول اليدين والعينين والأذنين.. إلخ إلخ.

حلقت طيور البُوم وصاحت صغارها بسبب المطر. هنا، يا للعجب! انفراجة في هذه الليلة المظلمة! بقعة بيضاء بين الأشجار! هل هذا ممر؟

وفجأة ظهرت من خلف أغصان الأشجار مجموعة أشخاصٍ غامضين. إنهم يسيرون نحوه، يتحركون بصمت، تتسارع خطواتهم تدريجيًا، بعضهم بدأ يجري بتوتر.

عندما اقتربوا منه، لاحظ أن لهم رؤوس خنازير. عدا هذا المشهد، لا شيء يشير إلى أنه من المفترض أن يكون في كابوس. بدوا سعداء لأنهم رؤوه، من السعادة، كانوا يهزون أنوفهم وترتسم على وجوههم ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن. عندما تجمَّعوا قريبًا منه، أخذوا ينفخون بصوتٍ عالٍ. كان هذا الصوت الأول الحقيقي الذي يسمعه منذ خروجه من القطار. التفوا حوله. أصابه الفزع. وبالتدريج، تشابكت الحلقة، كانت رؤوسهم على بعد عشرات السنتيمترات منه.

وهنا استيقظ. كان يرقد في حجرة لا يعرفها، على دكة بالقرب من بوتاجاز، حذاؤه تحت رأسه وتغطيه بطانية رثة لا يمكن أن تدفئ إلا شخصًا دافئًا من الأصل.

طرق أحدهم الباب. تثاءب «دك» الابن، جلس، رتَّب البطانية، ارتعش بردًا. هناك من يُنظم البطانية، وهناك من يَنظِمُ الشعر، وهناك من يفرد البطانية، وهناك من يعمل، وهناك من يطرق الحديد، وهناك من يطرق الباب. إنها قوة اللغة التشيكية يا أصدقاء.

(19)

استند «فيكتور دك» إلى درابزين جسر الثورة، وأصغى باهتمام إلى «تديك» الذي كان -بالأسفل على بعد سبعة أمتار- يحشو رأس طالبتين بالتواريخ. كانت الطالبتان مرحتين في مرحلة الثانوية جاءتا بهدف التنزه والاسترخاء والاستماع لمشاكل بعضهما الوجودية التافهة، وهكذا تتابعت التواريخ الواحد يلو الآخر. أنصت «فيكتور دك» باهتمام أكاديمي: تدفق التقاويم في التشيك بديل ناجح للاقتباس عن مصادر غير حقيقية، تلك الطريقة التي اتخذها «دك» قبل أعوام كاستراتيجية اجتماعية. من يتذكر التواريخ المهمة لا يمكن أن يكون أحمق تمامًا، بل شخص لديه رؤية للوطن. إقحام التواريخ المهمة في الحديث يدل على ذكاء خارق وكذلك حس وطني قوي، عصفورين بحجر واحد، كما في حالة التكنوقراطيين في «بروكسل» عندما ينوون أن يضيقوا الخناق على الشعب التشيكي من خلال البيروقراطية الأوروبية. الاهتمام بشغف يجعلك في التشيك باختصار تعمد إلى حفظ التواريخ المهمة عن ظهر قلب، فالتشيكيون لا يتذكرون شيئًا سوى التواريخ.

فضَّل «دك» المراجع المتعلقة بالإنجيل عن الأحداث التاريخية لسببين يتعلقان ببعضهما: قلة المنافسة في هذا المجال التي أدت حتمًا إلى تألقه منفردًا، وفي الوقت نفسه، لا يهدده خطر أن يبدأ أحدهم في تصحيح أخطائه. غير هذا، هناك سبب ثالث، وإن كان سببًا ثانويًّا، في المدرسة الثانوية، كان هناك زميل، دؤوب، متملق، الطالب الأفضل بالصف، وكذلك نمَّام، لم يستطع تحمل المعاناة، كان هذا الزميل يسرد التواريخ مثل جدول الضرب. اسمه «كارِل كريتشي» وكان بإمكاننا أن نهتف ساخرين منه: «كاكا كاكا»، ولكنه لم يحفل بنا مطلقًا.

أصبح «كارل كريتشي» فيما بعد عالم نفس وكاتب مقالات مشهور، يتناول فيها الذاكرة وطرق تقويتها. وابتكر في نهاية الأمر مدخلًا عامًا لتقوية الذاكرة يعتمد على تحويل الأحرف الساكنة إلى أرقام. ومن خلال ما يُسمى بالجسر الذي تتحول به التواريخ إلى مقاطع وكلمات، يستطيع المتحدث استدعاء أي تاريخ من الذاكرة.

على سبيل المثال، عام 1620 يتذكره بـ «فلتخشَ الليل»، وعام 1670 يتذكره بـ «كان هذا معلمًا»، وعام 1415 يتذكره بـ «قطعة الخشب تحترق» وهكذا. وفي بداية السبعينيات، تمت تجربة هذه الطريقة في إطار البرنامج التعليمي لطلاب الفرقة الأولى الثانوية وذلك في ثلاث مدارس في مدينة «برنو». واتضح مبكرًا أن الشباب الذين لا يفهمون المعنى المجازي للجمل المختارة لديهم مشكلة أكبر مع تذكر الجسور من مشكلة تذكر التواريخ. معظمهم عدَّل الجسور بشكل تلقائي بما يتناسب مع لهجاتهم المحلية (المعلم يحترق، فلتخشَ قطعة الخشب، كان هذا في الليل)، مما أدى إلى استنتاجات تاريخية خاطئة تمامًا. صارت ورقة بحثية مشهورة جدًا في الأوساط الأكاديمية في ذلك الوقت، لباحث بائس توصل في النهاية إلى أن معركة «الجبل الأبيض» حدثت عام 6702، ولأن هذا الباحث عميق، فقد تنبه لسخافة قوله وأضاف بعد قليل من التأمل لتحري الدقة «قبل ميلاد المسيح».

غادرت الفتاتان المسكينتان بسرعة بعد حفنة من التواريخ المهمة.

قالت الطالبة الأقل قبحًا:

- نحن أردنا فقط أن نعرف إيجار المركب في الساعة.

أجاب «تديك»:

- المركب البطة يكلف 20. هل تعرفان كم كانت تكلف الساعة في عام 1989؟ ألا تعرفان؟ حسنًا، لو استخدمتما هذه المراكب لكلفتكما خمس كرونات! خمس فقط!

ابتعدت الطالبتان:

- شكرًا لك.

نظر «دك» قليلًا إلى «تديك» الذي كان ينظر إلى الطالبتين وهما تبتعدان. بعدها نحنح، جمع في فمه مقدار من البلغم، ثبت لسانه، زم شفتيه وبصق كتلة. تقريبًا أصاب هدفه، ينقصه 30 رقمًا. نظر «تديك» حوله عندما سمع صوت البصقة، وفي النهاية رفع بصره. كان هناك عجوز يقف على الجسر، مستندًا على قائمة الدرابزين. راح ينظر إلى أمواج نهر «فلتافا» اللعوب متسائلًا.

(20)

قال «يرجي سفيراك»، وهو المرؤوس الذي يلي «وليام لبيدا» مباشرة:

- السيدة «كالوسكوفا» هنا.

منذ زمن يطلقون على «سفيراك» لقب «القشرة»؛ لأنه - وفقًا للرواية - كان ذات مرة يطارد في شبابه – عندما كان يخدم في مدينة «كلادنو» - مجرمًا يحاول الفرار.

وبسبب حظه العاثر، انزلق على قشرة موز ألقى بها على ممر المشاة مواطن ما غير صالح. وحسب حكاية المجرم المذكور سابقًا الذي أُلقي عليه القبض، إنه وجه إليه لكمة جعلته يرقد في المستشفى مصابًا بارتجاج في المخ. ولكن «سفيراك» نفى كلتا القصتين، وبصبر، أوضح أن زملاءه من «كلادنو» كانوا يطلقون عليه هذا اللقب بسبب ذكائه الذي أخرجه سالمًا من كثير من المواقف الخطرة.

كان «سفيراك» يشعر بمرارة حقيقية؛ لأنه لم يحرز تقدمًا في وظيفته. كان يتفاهم كليةً مع «لبيدا» وكونه تابعًا له، لم يسبب له أي مشاكل خاصة. لكن كان في أعماقه مقتنعًا أن منصب «لبيدا» القيادي من حقه هو. إلا أنه في الوقت الحالي من الضروري أن يكون مع المرء جواز مرور دولي كالذي مع «لبيدا». كان «سفيراك» في غياب «لبيدا» يبحث في مكتبه عن القضايا المعقدة الصعبة ويحاول حلها خلسة في وقت فراغه، وذات مرة سيتمكن من تخطي أولئك الذين يعتبرونه موظفًا عاديًّا يسهل استبداله بآخر. وفي مقدمتهم زوجته وأطفاله.

- أجل؟ فلتتفضل.

- لقد وصل ذلك الأوكراني. اسمه «كوفالينكو».

- اطلب منه أن ينتظر. لن أطيل عليه.

- إذا أردت رأيي، أظنه شخصًا مريبًا.

- كيف ذلك؟

- يرغب في التعاون بشدة. لا أحد يسأله على أي شيء ولكنه يشرع في توضيح ماذا يعمل، أين يعمل وكم طفل لديه. أظنه يقوم بأعمال غير قانونية. لن أستعجب أبدًا لو كان يعمل في المافيا.

- سنرى بعد قليل. والآن أحضرْ لي السيدة «كالوسكوفا».

صرخ «سفيراك» في الممر ثم مشى مبتعدًا.

ظهرت عند الباب سيدة ذات جمال عادي في الأربعين من عمرها.

سألها «لبيدا» برفق:

- السيدة «كالوسكوفا»؟

قالت بهدوء:

- «كالوسوفا». دون الكاف. توجد كاف واحدة فقط في بداية اسمي.

كان اسم السيدة «كالوسكوفا» قبل الزواج «كالوسوفا». عند تغيير حالتها الاجتماعية، أضيفت لها صيغة التصغير التي قبلتها مضطرة رغم كرهها لها، خاصة أنها بعد سبع سنوات من الزواج، انفصلت عن زوجها وعادت إلى اسمها قبل الزواج. وهذا يصيب غالبية من يعرفونها بالحيرة.

قال «لبيدا»:

- آه، معذرة.

نهض بلباقة، أغلق الباب خلف السيدة «كالوسوفا» وجذب لها مقعدًا.

- اجلسي من فضلك.

جلست «كالوسوفا» بحذر.

- ليس لدي ما أقوله.

- عفوًا؟

- قلت إنه ليس لدي ما أقوله. أعيش وحيدة مع ابني، الناس لا يحبون هذا، لكنه يذهب إلى المدرسة بانتظام ويدرس باجتهاد. بالتأكيد هناك من يفتري علينا.

- لا أحد يفتري عليكم يا سيدة «كالوسوفا». أردت رؤيتكِ فقط بسبب الأحداث التي وقعت في منزلكم، كما تعلمين، الحريقين.

- الموضوع نُشر في الصحف، لكنهم لا يحبونه.

- معذرة؟

- لا يحبونه، الناس لا يحبون هذا.

- أجل، أفهم هذا. لكنني أود أن أستفسر منك عن الحريقين.

- أنا لا أعرف شيئًا.

- معذرة؟

- لا أعرف شيئًا. جاء رجال الإطفاء. كان المبنى ممتلئًا بالدخان.

- تُقيمين في الدور الأول، أليس كذلك؟

- كان بينهم رجل لطيف ووسيم. شجاع، معه فأس.

- معذرة؟

- معه فأس. لا أعرف شيئًا آخر. يجب أن تصدقني.

- أنا أُصدقكِ يا سيدة «كالوسوفا»، لا تخافي. أردت أن أسألكِ ما إذا كنتِ التقيتِ في المبنى شخصًا غريبًا، رجلًا أو امرأة، في الدور الأرضي أو حتى في الدور الذي تُقيمين به، شخصًا أخطأ العنوان أو جاء في زيارة لأحدهم، شخصًا لم تريه من قبل في المبنى.

- التقيت السيد «أليكسي». أقابله كل يوم تقريبًا. هو أوكراني، لكنه يتعامل بلباقة، يلقي التحية، أحيانًا مرتين. عندما أرُدُّ عليه، لا يسمعني ويعتقد أنني لم أسمعه. أنا أسمعه جيدًا.عددهم كبير. هو، أخوه، زوجته، ابنتان. في حجرتين.

- أجل، وهل من شخص غريب؟

- نسيت الصالة.

- من؟

- الصالة، نسيتها.

- أتفَهَمُ ذلك. سيدة «كالوسوفا»، شكرًا لاهتمامكِ.

قالت السيدة «كالوسوفا» بارتياح وارتباك:

- هل هذا كل شيء؟

- كل شيء.

(21)

تذكر «دك» (سوف يعود بالترام، التنقل بوسائل المواصلات العامة بين الخامسة والسادسة أحد أفضل المتع التي يدلل بها نفسه بانتظام) وهو يمشي نحو الضفة الأخرى أحمق آخر كان يعرفه في الماضي، زوج زميلته بالعمل، ثم خانه مع زوجته لاحقًا بعد سنتين أو ثلاث. قضى معه من قبل أسبوع كامل في رحلة عمل.

- اسمي «نايمان»، مهندس.

وأنا كبيرُ الملائكة أيها الأحمق.

- «دك».

- آه، حضرتك السيد «دك»، بالأحرى «فيكتور»، هاها، أليس كذلك؟

يا له من مضحك.

- أجل.

- زميل زوجتي، أليس كذلك؟

بل يمكن القول الزميل المقرب لها.

- أجل.

- تشرفت كثيرًا.

أنا لم أتشرف.

- وأنا كذلك.

كان «نايمان» حالة مثالية للغباء التشيكي، بل يمكن عرضه في المعارض العالمية: ظريف، عقلاني، إلى حد ما شعبي، إلى حد ما مثقف، ذو منصب، أناني، عدواني.

كان يحب بإفراط أن يناقش ما يسمى في التشيك بالعملية الاجتماعية التي يتم فيها - باحتراف شديد - التخلص من ثور آخر مخصي يحاول قدر المستطاع التعبير عن شيء ما. لو قام التشيكي بهذا الواجب الاجتماعي، سوف يعد إنسانًا ذكيًّا. الذكاء التشيكي ينهض من الظلام العميق الذي فيه يتقابل غبيان ويصبحان صديقين. يتطابق الجدال مع رفض كل شيء، أي شيء يقوله الآخر، انطلاقًا من مبدأ لن يستطيعوا مجاراتي؛ أن يكون لديك رأيك الخاص يعني أن تُقدر ذلك المستنقع القابع في رأسك.

كان «نايمان» متألقًا في المناقشات، المجادلات ووجهات النظر، نتيجة لذلك، فرض على رفاقه احترامه وتقديره. التعبير عن حماقاتك الخاصة - بفرض كل سلطتك وهذا أمر يتطلبه الموقف - يصب في صالح التشيكيين أصحاب الطموحات الكبيرة، فتنتج بينهم علاقات عمل مثمرة.

وفي عام 1968، هاجر «نايمان» إلى فرنسا - هجر زوجته مما أغرى «دك» على الأقل في البداية، قبل أن تبدأ الحديث عن الطلاق - مع تصميم نابع من الوطنية لكي يرى العالم المواطن التشيكي في أفضل حالاته. بعد أربعة أو خمسة أشهر، اقتنع أن العالم باهت وسطحي جدًا. قرر أن يعود إلى الوطن في الوقت المناسب، وهذا ما حدث بالفعل. ومن خبرته الكوزموبوليتيكية، استنتج حقيقتين حياتيتين غير مفهومتين: العالم مليء بالحمقى والكائن التشيكي رقيق وكئيب أكثر مما يجعله مؤهلًا للحياة في مكان آخر بعيدًا عن أقرانه. ولإراحة بال «دك»، استرد زوجته الأكثر إثارة، اشترى في «شومافا» بيتًا ريفيًّا قديمًا أو كوخًا، بنى له سقفًا جديدًا من القش، وضع أسفل مضخة الماء مجرى من الجرانيت وأصبح مروجًا متحمسًا للعمارة التشيكية الشعبية، أصدر لاحقًا بعض الكتب التي تمتلئ بتفاصيل عن دعامات النوافذ والأبواب وروافع الأسقف ودعاماتها وتشييدها. ولأن شهرته كانت بلا جدوى، ظل العالم كما هو، والسقف الخشبي هو السقف الخشبي.

التقى «دك» بعد سنوات بـ «نايمان» في صالة انتظار الطبيب «بيترانك»، طبيب أمراض الذكورة، الذي قاس لهما حجم الخصيتين بحجة ضمورهما ووصف لهما بعض الفيتامينات. ولمدة ساعة إلا ربع، أخذ يشرح لـ «دك» العمارة الشعبية وسطحية العالم الغربي، وألقى محاضرة مملة ممزوجة ببعض النكات عن الخصيات. في التشيك حتى المثقف يعرف كيف يضحك من قلبه.

مات غبيًا كما عاش غبيًا. ذات يوم، قرر أن يشتري لكوخه غسالة جديدة. ولكن ماذا يفعل بالقديمة؟ وضعها في سيارة، غادر إلى الغابة، دفع بها إلى تل بِنِية إلقائها في وادٍ ضيقٍ، إلى مقلب قمامة لا أكثر، شهدت «شومافا» أمورًا أخرى مماثلة. عندما كان يستند على الغسالة فوق التل، عاندته، فتراجع بضع خطوات كي يحظى بصوت تحطم أقوى. بدأ الجري، استدار، دفعها بردفه، وقعت الغسالة بالوادي وهو معها. وجد جثته بعد خمسة أيام أحد السائحين المتسكعين، ونُشر في صحيفة «يهوتشيسكي هلاساتيل» نعي قصير بعنوان «موت تراجيدي لمتخصص».

ضحك «دك» بصوت أجش. الذكريات بلسم الشيخوخة.

كان الرصيف مكتظًا في الشمس بالناس والعرق والحقد ودخان العادم في محطة انتظار الترام. كان ذلك شبيهًا بسفينة نوح الممتلئة بالشاردين الذين لم يكن بمقدورهم أن يقرروا إذا كان هناك وقت لكي يرسوا على شاطئ متحضر.

شق «دك» طريقه وسط الحشد، كان يضحك وهو يضرب بعصاه كواحل وسمانات الواقفين في الزحام. رمقه بعض الواقفين بسخط. تماسك «دك» وتجشأ بصوتٍ عالٍ. عرف من خبرته الشخصية أنه بذلك سيلوث الهواء بعد لحظات في محيط المتر ونصف المتر.

(22)

نادى «سفيراك»:

- «كوفالينكو!؟

وفي هذه الأثناء، وصل رجل آخر.

- «هروزناتا».

- نعم، هذا هو بالفعل، وعناك كذلك صاحب مركز، ولكنني أرسلته إلى «هيبلر».

- وما الذي يضايقه؟

- رشُّوا له واجهة المركز بالإسبراي. للمرة الثالثة هذا الشهر. كتبوا على الزجاج «لا تؤاخذوني» ورسموا عضوًا ذكريًّا على الزجاج بأكمله. ولهذا أرسلته من أجل «هيبلر».

- خيرًا صنعت. أرسل لي السيد «كوفالينكو».

- لم تنفذ السيدة «نايمان» الاستدعاء حتى الآن. هل يجب أن أتصل بها وأوبخها؟

- ليس الآن، شكرًا.

دخل السيد «كوفالينكو». أنف كبير، شارب أنيق، ذقن كذقن الفأر، ورأس كرأس الخنزير. محترم ورقيق. أُصيبَ بالبرد في الليلة السابقة على الحريق، رقد في فراشه وهو يتصبب عرقًا، ابتلع نصف كيلو من الحبوب، أصبح رأسه ثقيلًا كالحذاء، لم يسمع شيئًا، ولم يرَ شيئًا، ولم يشعر بشيء. هل من الممكن أن يكون مفتعل الحريق أحد المستأجرين؟ لا، لا يمكنه أن يصدق ذلك، وكذلك أجنبي جاء إلى جمهورية التشيك المضيافة من أجل العمل آملًا في أن يصبح فردًا مخلصًا لهذا الوطن السلافي صغير المساحة كبير الروح، فعلةٌ كهذه لم تكن لتساعده على تحقيق هدفه. جيرانه كانوا في معظم الأحيان ودودين ولطفاء، أكد أنه يحييهم بتهذيب كلما سنحت له الفرصة. كل شخص منهم وفقًا للسيد «كوفالينكو» مثال للود وحسن الضيافة وغير قادر بالمرة على اتخاذ قرار يتسبب بالهلاك، ناهيك عن ارتكابه لجريمة قتل. التشيكيون أناس طيبون لدرجة أن ذلك يصيب السيد «كوفالينكو» بالدوار أحيانًا. لو أن السيد المفوض استطاع بشكل ودي أن يتوسط له عند زميله في شرطة الأجانب..

قال السيد «كوفالينكو»:

- فليبارك الرب السيد الرئيس.

ثم رشم صليبًا.

في هذه الأثناء، كان «يرجي سفيراك» يقلب الأمر في رأسه منزعجًا، لماذا يأتي «لبيدا» بهؤلاء

الناس إلى مكتبه بدلًا من أن يرسل أحدًا خلفهم. شارك زميله «فلاشاك» هذه الأفكار، ولكنه لم يكن أذكى منه أيضًا.

لكن «لبيدا» لديه أسبابه ويقوم بعمله بعقلانية. قال في نفسه ربما بهذه الطريقة ينجح فيما يفعل. وربما بهذا يمنع وقوع الحريق الثالث. كان «لبيدا» شخصية ممنهجة وشرطي حي الضمير.

(23)

كانت علبة الأحذية جديدة ومليئة بالعديد من الماركات، وتحتوي على خليط من أشياء تعود إلي خمسينيات وستينيات القرن الماضي. بها خريطة إرشاد سياحي، إعلان لحفل زفاف، مجموعات غير مكتملة من الطوابع في شكل أغلفة مستقلة مقاس A6 مع عشرين عينة تشيكية وسلوفاكية ومجرية، وكشكول أخضر عليه تيكيت (المادة، الاسم، المدرسة، الفصل) وصفحة مقطوعة من دفتر ملاحظات مرسوم عليها شمس فوق تل مُشجَّر ومكتوب عليها: «ننتمي إلى الفصيلة نفسها، أنا وأنت!». بالإضافة إلى الطوابع والملاحظات، وجد في العلبة الكرتونية دمية دب صغيرة مع عبارة حمقاء ومننقوش على صدره اسم «ميشا»، وقصاصة من صحيفة عليها رسم لرقعة شطرنج:

الأسود يفوز بحركة واحدة

كان «فيكتور دك» يعرف الحل عن ظهر قلب.

1. ..... Vgh8 2. Sf3 Dxg4 3. Sg2 Jxg2 4. Dxg2 Vh1+5. Dxh1 Vxh1+6. Kxh1 Dh3+7. Kg1 Dh2+8. Kf1 f3 وهكذا.

أو 3. De2 Dh3 والأبيض يخسر.

على الأقل من وجهة نظر من وضع تلك اللعبة، فهو لا فارق بينه وبين الخاسر أو الفائز.

ولكن بالنظر إلى ما سبق ذكره:

3. Vxe3 Dxf3 4. Jg5+fxg5 5. Vxe7 Kxe7 6. Dg7+Kd8 7. Dc7+Ke8 8. Vxe3 +Ve1+De3 9. يخسر الأسود.

أم لا؟

لم يعد هذا الموضوع برمته يثير «دك». لم تكن أمور ذلك المعتوه تسير على ما يرام. باستثناء تلك الكابينة التي يمتلكها، وهذا هو الأهم. أعرف المكان وسأوفر بعض الرسوم.

أعاد القصاصة إلى العلبة، سحب دمية الدب، وضعها على ظهرها، فأصدرت زمجرة. وضع الدمية جانبًا وأمسك بالدفتر. مكتوب على الغلاف بخط تلميذ: «وحيدًا في مواجهة الصعاب، رواية من الغرب المتوحش».

كُتبت الرواية بالتناوب بالقلم الجاف والقلم الرصاص، مزودة بالعديد من التوضيحات ومستهلة بكلمة الكاتب في المقدمة:

«كتبت هذا الكتاب للأطفال من سن العاشرة. في شبابي، جذبني حب المغامرة، ولهذا قررت أن أكتب هذا الكتاب. أعلم أنه الآن يجلس حول هذا الكتاب الكثير من الأطفال الذين تأسرهم المغامرة.

ومع ذلك، هذا الكتاب كتبته للكبار أيضًا، من المفترض أن يذكرهم بتطلعهم إلى المغامرة، مغامرة في سن الشباب. أتمنى أن تنال هذه الرواية إعجابكم».

على أي حال، فقد نال هذا الكتاب استحسان «دك». فقضى الليلة في قراءته.

(24)

أيها القراء! هل يبدو لكم حديثنا غير مثير؟ هل تشعرون أن الحدث لا يتحرك من مكانه؟ وأن الكتاب الذي تحملونه بين يديكم لن يُحدِث شيئًا ذا أهمية؟ لا تفقدوا الأمل: إما أن الكاتب أحمق أو أنتم الحمقى، الفرص متساوية. مات آخرون، ونحن سنموت أيضًا، سنموت، آخ، يا للعجب، يا للسماء! تتشابك حياة الإنسان أحيانًا دون أن يدرك ذلك وكذلك شخصيات الروايات.

هل ستتساءلون كيف سينتهي ذلك؟ ولكن، أيها السادة القراء، لا يمكننا أن نخبركم. فقد بدأنا كتابة هذه القصة دون تصور واضح أو أي أفكار جانبية؛ إلى أين ستصل الأمور، لا نعرف إلى أين ستصل، لا نظن ذلك، نحن مثلكم تمامًا، أو تقريبًا في موقفكم نفسه؛ لأننا في اللحظة التي تقرءون فيها كتابنا، نكون قد انتهينا من كتابته، ويكون الكتاب بعيدًا عنا، اشتريتموه، استثمرتم به جزءًا من دخلكم آملين أن يعود عليكم هذا الاستثمار بعائد في شكل قيمة روحية. لا نريد بأي حال من الأحوال أن نكون غير مهذبين، ليست لدينا أي نية لارتكاب استفزازات رخيصة، ولكن على الرغم من ذلك، على الرغم من ذلك: ما شأننا نحن بهذا؟ أخذنا على عاتقنا الجزء الأكبر من المسئولية؛ وعليكم أن تتحملوا بصبر الجزء الخاص بكم.

(25)

تم تأسيس الدير في «أوسِك» في بداية القرن الثالث عشر. وبعد 750 سنة، تم تأسيس مركز لاعتقال الرُهبان، انتهى سبب وجودهم مع بداية حقبة تاريخية جديدة ساد بها اضطراب خلاق مفرح. الراهب، شخصية كئيبة متجهمة، وتوافقه مع الفترة الجديدة يشبه توافق الصنارة مع السمكة.

لم تكن مراقبة الرهبان مهمة صعبة، عشرون رجلًا مسلحًا، تم إعدادهم من أجل هذه المهمة، كانوا غالبية اليوم يصابون بالملل. واختصارًا للوقت، كانوا يتنافسون فيما بينهم في إطلاق النار على شخصيات مريبة في اللوحات المرسومة على الطراز القوطي والباروكي، والتماثيل المختلفة، والنافورات البشعة المنحوتة على شكل ضفادع وكلاب وحيوانات أخرى مميزة. في المساء، يشعلون النار بالخارج في الحديقة إذا كان الطقس يسمح بذلك، وفي الكنيسة، إذا كان الطقس قاسيًا يقومون بشوي السجق. ومن أجل إشعال النار، يستخدمون كتب المكتبة ولوقودها يستخدمون خشب الأثاث. يلتهمون السجق ويشربون البيرة في زجاجات، ينصرفون إلى الحديث عن فترة جديدة ويتطلعون إلى ترك حراسة الدير غير المثيرة والتصويب على الأعداء على الحدود القريبة. في الليل، يحلمون بالأهداف المتحركة والحرب العالمية الثالثة. في هذه الأثناء، يهيم الرهبان في الممرات، يغمغمون بأقوال مبهمة ويحتضرون واحدًا يلو الآخر، بعد ثلاثة أعوام، سقط منهم حوالي مائتين.

بعد عشرة أعوام، ألغيت حالة السرية عن جزء من الدير. بعد عشرة أعوام أخرى، تدهورت حالة الدير أكثر، وجرى التعتيم على الجزء المتاح للعامة. بعد خمسة عشر عامًا أخرى، عاد الدير ليخضع لنظام رهبنة «سيسترسيس». وبعد خمسة عشر عامًا أخرى، زالت حالة التعتيم الثقافي عن جزء من الدير.

مجهول ما - أسنان غير مستقيمة، أسنان الفك العلوي لا تتطابق مع الفك السفلي كالأرانب - عبرَ الممر حول حجرة الطعام حيث يجلس عشرة مشردين وجدوا ملاذهم في الدير. نظر إلى أحدهم نظرة ود.

خرج إلى الحديقة، هبط المنحدر الناعم متوجهًا إلى الميدان متوجهًا إلى سيارته، كانت في انتظاره مسافة مائة كيلو متر سيقطعها عبر الطرق غير الآمنة.

بدأ التليفون يرن في جيبه.

تحدث في التليفون:

- نعم؟

قال الصوت متحشرجًا:

- هذا أنا، «هافليك».

- أها، ماذا هنالك؟

- يتردد بانتظام على مدينة «خوموتوف». ليومين أو ثلاثة. يسكن في شقة. 4 ميدان «بالاتسكي». ولكن اسمعني، ما زال اتفاقنا ساريًا، أليس كذلك؟

- كن مطمئنًا.

- أردت فقط أن أطمئن، كي لا يحدث بيننا أي خلاف. أنت تعلم أن الزبائن مختلفون. بعضهم..

- أعلم ذلك. كل شيء على ما يرام.

- رائع.

(26)

قاد «يرجي سفيراك» السيد «هروزناتا»:

- تفضل، اجلس.

جلس «هروزناتا».

- حسنًا، هل اعترف؟

- مَن؟ وبماذا؟

- انظرْ، يمكنك أن تتحدث معي مباشرة. ذلك الأوكراني. «كوفالينكو». أحرق المبنى كي يضطروا إلى توفير سكن له بالفندق. هو وأخوه ونساؤهم.

- على أي شيء تستند في إصدار حكمك هذا؟

- كما قلت لك يمكنك أن تتحدث معي بصراحة، فأنا لستُ ابن البارحة.

- ماذا؟

- يتظاهر بالرقة، يمكنه أن يتملقكم، يصل في تملقه لكم إلى.. لن أقول لكم إلى أين. وفي خلال هذه الفترة، يُمارس عملًا آخر بشكل غير رسمي. سيد «هروزناتا»، هل تريد أن تُصلح شيئًا ما؟ هل تريد أن تلوّن شيئًا ما؟ أن تنظف النوافذ؟ وعندما يأخذ مبلغًا تحت الحساب، يختفي نهائيًّا بهذا المبلغ، في أفضل الأحوال. وعندما تُدخِله إلى شقتك، فإنك تتعرض للسرقة بعد أربعة عشر يومًا. والفاعل مجهول. مجرد صدفة.

- فيما يتعلق بالحريق يا سيد «هروزناتا»، هل تعرف شيئًا أكثر تفصيلًا؟

- كنت مع أصدقائي في البار، إذا كنت تسأل عن هذا. كانت زوجتي بالمنزل. لا تخرج كثيرًا. هي في الواقع لا تخرج أبدًا. كانت تسمعهم كيف يضحكون. الأوكرانيات.

أسفلها بدورين. هل هذا طبيعي؟ أسفلها بدورين.

- أجل، هذا مثير. ألم تلتقِ مصادفة شخصًا غريبًا؟ عندما ذهبت إلى ذلك البار؟

- ربما بعض الشيوخ، يجتمعون في ناديهم الخاص. ماذا يمكنهم أن يفعلوا هناك؟ هذا أمر يحيرني. حاول أكبرهم سنًا ذات مرة أن يقنعني بتقديم طلب عضوية.

وكأنني في حاجة إلى ذلك. هل تسجلون هذا؟ ما أخبركم به؟

- هذا ليس استجوابًا يا سيد «هروزناتا». أردتُ فقط أن أتعرف عليك.

- ها قد تعارفنا. ولكن هل ستتذكر كل هذا؟

- الخطوط العريضة، أجل. وهذا يكفيني الآن.

لاحت خيبة الأمل على وجه السيد «هروزناتا». الكلمة المنطوقة تشبه الضراط، في لحظة تستدعي الانتباه، ولكنها سرعان ما تتحلل في الهواء، الكلام المكتوب يصبح إرثًا للأجيال القادمة. لم يتخيل السيد «هروزناتا» أننا نقوم بالعمل الذي كان ينتظره من المحقق «لبيدا»، ووفرنا له شهرة أكبر مما قد يحققها محضر شرطة حقيقي.

- أتمنى أن تتذكر زوجتك شيئًا من هذا.

تابع «لبيدا»:

- الحريق الثاني في المبنى حدث منذ فترة ليست ببعيدة.

- هي لا تخرج كثيرًا.

(27)

لا بد أنه كابوس على الرغم من أنه لم يبدأ بشكل مزعج. ألقى «دك» الابن بالسيجارة وضغط على الجرس.

ذلك الصباح، دوت بداخله أصوات مختلفة النغمة والقوة، يا إلهي! شعر «دك» الابن بالصداع، فُتِح الباب واحتشد أمامه ستة أو سبعة أشخاص، وجوههم مبتسمة. قال «دك» الابن:

- مساء الخير.. مرحبًا.. أنا..

- لا تقلْ هذا! لا تقل!

صاح وجه نسائي متوردًا من جهة اليسار:

- «بلوما!؟

كان «بلوما» لقب «دك» الابن في مرحلة الثانوية.

أخذت تلك الوجوه تنادي واحدًا تلو الآخر:

- إنه هو «بلوما!؟»

- «بلوما!؟»

- جاء «بلوما!؟»

وبعد ذلك تفرقوا، ودخل «ديك» الابن ممرًا آخر مبهجًا، تجمعت في نهايته مجموعة أخرى من الأشخاص، أكثر حرية ووضوحًا. صاح به أحد الأصوات:

- هل تعلم كيف تعرفت عليك؟

وهنا اقترب منه آخر، وجه مألوف من بعيد، بدأ يضربه على ظهره، جره إلى حجرة جانبية. كانت الزجاجات الفارغة والأكواب الزجاجية تُقذف هناك، ويضج صوت قباع الخنازير كما لو كانوا قد تجمعوا حول مجموعة من القنافذ.

كيف الحال؟ جيد، ماذا عنه؟ لا بأس، لا بأس، هاها، وماذا عنه؟ هل كل شيء كما في السابق؟ أجل، يمكننا أن نقول هذا. كيف ذلك؟ هل من مشكلة؟ لا، لكنه يعرف هذا، ليس ضروريًّا أن يخبره عن هذا أي شيء، عندما تكون حياتنا في منتصف الطريق، ها ها، وماذا عن الأطفال، هل لديه أطفال؟ لا أطفال. هل من زوجة؟ لا زوجة، أحدهم محظوظ، ها ها! هل يتبادل رقم تليفونه مع إحداهن ويذهبان معًا لشرب البيرة ويتجاذبان أطراف الحديث عما يجدُّ في حياتهما، يمكن أن يكون ذلك رائعًا، أليس كذلك؟ يمكنهما أن يتذكرا ما مرا به، مرح الشباب، لهفة الشباب، الليالي الحالمة، أوقات البطولة، لا

أطفال، لا زوجة، هذا شخص محظوظ، أليس هذا رائعًا؟ كيف هذا، لا تليفون؟ لا تليفون، ولا موبايل؟ ولا موبايل، على الأقل لديه عمل؟ ولا عمل أيضًا! ليس لديه عمل، هذا شخص محظوظ!

دخلت إليه في الغرفة عجوز شمطاء ذات نهدين ضخمين:

- «بلوما!؟»

لوحت بإحدى يديها بحرارة، وفي اليد الأخرى كانت تمسك بقطعة من كيك الفانيليا باللوز مقضومة.

- مرحبًا يا «بلوما!؟» تعالَ إلى هنا كي أقبلك!

عانقته بتلهف، داعبته بنهديها. التصقت بشفتيه، أخرجت لسانها وأقحمته بفمه. شعر «دك» الابن بالضيق.

وهنا استيقظ. كان راقدًا على دكة في مقصورة فارغة، وتحت رأسه معطف ملفوف، تتصبب جبهته عرقًا، وفي فمه مذاق لوز نتن. بدأ القطار يبطئ في سيره. نظر «دك» الابن من النافذة. تقريبًا غفا قليلًا.

(28)

قال صاحب متجر الكتب القديمة:

- «فيكتور ياري»؟ لا أعرفه.

قال «لبيدا»:

- صدر هذا تقريبًا عام 74 أو 75.

- وصلتني أول أمس مجوعة أعمال نثرية تشيكية. إرث لأحد النقاد الأدبيين، ستمائة مجلد مقابل خمس كرونات. إذا بعتُ مائة منها بخمسين كرونة، سيكون ربحي حوالي ألفي كرونة. لكنني لم أفرّغها بعد.

- يمكنني أن أمر عليك الأسبوع المقبل.

- ألا تريد بعض الشعر؟

- ربما المرة المقبلة.

وضع مالك المتجر يده بكومة الكتب على حاجز المتجر، وأعطى لـ «لبيدا» كتيبًا صغيرًا ذا لون بني فاتح. الكاتب «يان خوليك» واسم الكتاب «في دوامة أوراق الخريف».

- إنه بكرونة واحدة. يمكنني أن أكتب لك إهداءً. أنا «خوليك» نفسه.

قال «لبيدا» بأدب:

- أجل، بالتأكيد سأشتريه.

قال مالك المتجر:

- انتظر!

وجذب الكتيب من «ليبيدا»:

- كي لا تشتري شيئًا لا تعرف محتواه.

بحث عن صفحة ما، رفع اليد التي تمسك بالكتاب إلى مستوى صدره، استند بالثانية على حاجز المتجر، وبصق.

- «في أعماق الغابة، يئن الغزال الأزرق الأسود..» توقف «خوليك» عن القراءة.

- أنت تعرف أنني أحب الأدب الكلاسيكي. الشعر الحديث لا يهمني.

- أفهم ذلك.

تنخم «خوليك».

- «غزال يئن في أعماق الغابات الزرقاء والسوداء، يشعر أن ساعته قد حانت.

ومن الحقول الحريرية الممتدة، يغرد طائر الحَجَل ومن البيت الريفي الجيري، تفوح رائحة الدهن المقدد.

ومن العشب الكثيف السام، يُطِلُ الفطر، يشبه الحب الذي لا أستطيع أن أهَبُكِ إياه.

اقترفت في حياتي الكثيرَ من الأخطاء، أقف في مفترق الطرق وحيدًا، أستمع إلى صرير الرياح.

في ممر الغابة أستمع إلى الغزال وإلى أنينه..».

قال «لبيدا»:

- سأشتري اثنين.

ابتسم «خوليك» فرحًا:

- الثاني هدية، إلى من ستهديه؟

- «وليام لبيدا». أمَّا الثاني وقعه فقط إذا سمحت.

- صديقي العزيز «وليام لبيدا»، أهديك حفنة من الأشعار الخريفية. «يان خوليك».

قال «خوليك» وهو ينقش الإهداء:

- لحظة، سأحضر لك حقيبة.

وضع «لبيدا» على الحاجز واحد وخمسين كرونة.

- شكرًا يا سيدي. إذا سنحت لك فرصة للبحث عن «فيكتور ياري»..

- سأفرغ المجموعة اليوم. إذا لم يكن فيها سأتصل بالزملاء. سنفتش عنه، لا تخف.

- سيكون هذا لطفًا منك.

- هل قلت إن اسم الكتاب «الحياة خلفك»؟

- أمامك. «الحياة أمامك».

- أها. فلتمر غدًا.

- يسعدني هذا.
- إلى اللقاء. غدًا تخبرني برأيك في هذا الكتيب.
- بكل سرور.

(29)

أعلن يوم جديد عن نفسه دون أهمية تذكر، مثله مثل الأيام السابقة. جلس «دك»، وهو من مؤيدي الاستيقاظ متأخرًا، في المطبخ، شرب القهوة، قضم بفمه الخالي من الأسنان مؤقتًا - لحين تركيب الطقم - رغيفًا محشوًا بالمربى، وراح يقرأ الإعلانات في الجريدة. طالع إعلانات الوظائف والشقق والسيارات، وقرأ أيضًا باب البحث عن شريك الحياة. الثلاثة أعمدة جهة اليسار مخصصة للنساء (هي تبحث عنه)، جهة اليمين للرجال (هو يبحث عنها). بعض الإعلانات مستهلة بعناوين ذات أحرف كبيرة تتبعها قصة قصيرة.

الخريف يقترب أبحث عن رجل متصالح مع الماضي، لا يريد أن يكون وحيدًا.

رغم أن «دك» لم يدرس علم التواصل، استطاع أن يحكم بأن كاتبة الإعلان ربما تكون في الأربعين من عمرها – لو كانت في الخمسين لما فكرت في التصالح مع الماضي، بل كانت لتطلب أمرًا آخر - خاصة لو كانت مطلقة ولها ابنان مراهقان. ألا تريد أن تكون وحيدًا؟ هووهوو! سنصبح عائلة كاملة!

أبحث عن رجل حقيقي - مطلقة (واحدة أخرى) مع ابن مهذب (واحد آخر) تبحث عن شريك مستقيم ومسئول يتمتع بروح الدعابة. روح الدعابة واحدة من أكثر الطلبات شيوعًا، ذلك لأنها فيما يبدو أفضل دفاع ضد خيبة الأمل. هل تتمتع بروح الدعابة؟ أنا بلهاء، سمينة، بشرتي دهنية، هيا أسْرِع إليَّ! وفي الوقت نفسه، مطلوب من الرجال أن يكونوا لطفاء وطيبين، أولئك الذين لا يفسدون الأمور.

هل سأجدك؟

أم عزباء لابن صغير، تبحث عن رجل حسن المعشر، تأتي أسرته في مقدمة أولوياته. لن تكون هناك علاقات جسدية، ولكن يمكنك أن تمارسها مع الغرباء! تصير العناوين من وقت لآخر بها نوع من السجع:

الصيف نمشي فيه، الشتاء نتزلج فيه بدت بعض العناوين وكأنها صدى لشباب «دك»:

أبحث عن رجل مع فأس حتى الفترة الحالية كانت حاضرة في العناوين:

هل تتاجر؟

أبحث عن رجل يوفر كل متطلباتي المالية.

ممتلئة القوام (هوو!) سوداء الشعر، متعددة الاهتمامات بالرياضة والثقافة (هيي هي!) لها دراية عامة بالاقتصاد والقانون (هاها!). تستطيع المساعدة في العمل وأمور الحياة الأخرى (الأفضل التزام الصمت فيما يتعلق بالحياة الخاصة)، تجيد المساعدة، وتحنو عليك (هووهو!) في الأوقات العصيبة. (وماذا عن أوقات المرح؟ عاهرة!). من «براج» أو «بلزين». كما أنها تعرف كيف تجرح ثم تُداوي.

حاولت بعض النساء إغراء الرجال بالإشارة إلى ما يحببنه: المرح، الرقص، الطبيعة، الأطفال. في معظم الأحيان، كنَّ لديهن اهتمامات متنوعة، بالأحرى اهتمامان فقط (الثقافة والرياضة، الثقافة والسفر، الأطفال والثقافة، الحياة العائلية والسفر، الأطفال والحياة العائلية). بعضهن يبحثن عن الرجال ليس فقط من أجل شيء ما (اللحظات الجميلة، لحظات الارتياح، الأيام الباسمة)، ولكن من أجل شيء آخر دون أن يصرحن من أجل ماذا تحديدًا. الرجل مع الفأس استثناء؛ غالبيتهن يطلبن تعليمًا عاليًا أو تعليمًا متوسطًا، ويجادلن حتى لو كان تعليمهن خاصا أو ذوات اهتمامات متعددة (الثقافة، الرياضة، السفر، الحياة العائلية، الأطفال). ولا واحدة منهن جذابة، ولكن أكثرهن يزعمن أنهن جذابات، خاصة الرياضيات منهن. (أجل، كتلك التي تمارس رمي القرص المعدني...). بدا إباحيًّا إلى حد ما هذا العنوان:

ادخلْ إلى البريد الصوتي الخاص بي رن جرس الباب. نفض «دك» بيجامته، وضع طقم أسنانه، وذهب ليفتح الباب. كان يقف بالممر رجل قوي البنية ذو ابتسامة لطيفة.

- سيد «فيكتور دك»؟ أعتذر عن إزعاجك. المفتش «لبيدا»، «وليام لبيدا». أود أن أتحدث معك.

- معي؟ وماذا فعلتُ مجددًا؟

يبدو أن هذا السؤال العادي لم يكن بالنسبة لجيل «دك» عاديًا أو واضحًا. قبل عشرين أو ثلاثين عامًا، كان مجرد طرح مثل هذا السؤال بشكل ساخر تعتبره الشرطة تنمرًا تامًا، وفورًا، ومع قليل من الحظ العاثر، قد يُصاب صاحبه بصفعة أو يفقد أحد أسنانه. بالفعل لم يكن ليفكر أحد في مثل هذا الموقف، أنه على رجل الشرطة أن يقدِّم نفسه أو أن يعتذر عن الإزعاج. لم يعتقد «دك» أنه مدين من أجل هذا للفترة الجديدة، ولكنه مدين لشخص المفتش «لبيدا»؛ ولكن لو أردنا أن نكون ثابتين على المبدأ، لتوصلنا إلى النتيجة أنه في النظام السابق كان من المحتمل جدًا أن يقوم شخص المفتش «لبيدا» بمنع «وليام لبيدا» من أن يصبح عميلًا لأمن الدولة.

- لا شيء يا سيد «دك». ليس هناك شيء على حسب علمنا.

استخدام صيغة الجمع أمر موصى به من جانب أطباء النفس بالشرطة. كان مرتابًا ومدركًا أنه بهذه الطريقة متورط مع مؤسسة وطنية حديثة، وفقًا لهم، يجب أن يرتبك ويرتكب حماقة ما. كان قادرًا على سبيل المثال أن يصرخ: «لستُ أنا الفاعل!» الأمر الذي يُمكِّن المحقق من المتابعة: «من يكون إذن؟».

قال «دك» متلذذًا بتهوره:

- لستُ أنا الفاعل.

أجابه «لبيدا» متخليًا عن علم النفس البوليسي:

- لكننا لا نتهمك بأي شيء.

استخدام صيغة الجمع بالنسبة لـ «لبيدا» في الإشارة لنفسه، ما هي إلا استراتيجية يوضح من خلالها إلى أن مشاركة المعلومات موضوعية وأنه يتصرف كالمحترفين.

- العكس تمامًا، شرف لي أن أتمكن من لقائك.

الانتقال من صيغة الجمع إلى المفرد يتوافق مع تقاليد الحضارة الغربية الإنسانية، ويسهل تعميق العلاقة بالتنبيه إلى عالمية الفرد.

- لطالما قدرتُ الأدباء.

استعاد «دك» بعض روحه، رغم أنه أفضل من يعلم أن ما كتبه هراء. ولكن يبدو أن هذا لا يضايق الناس. عندما علم الناس عن طريق التليفزيون أن «فيكتور ياري» و«فكتور دك» شخصية واحدة، بدءوا يحيونه بتقدير أكبر من قبل. وعندما علمت بائعة الخبز أن أحد زبائنها قد ظهر الأسبوع الماضي على شاشة التليفزيون، توقفت عن بيع خبز اليوم السابق له. وفجأة ومن دون مقدمات، وصف له الطبيب الممارس نوعين جديدين من الحبوب.

- دائمًا ما تستيقظ فينا مشاعر لم نكن ندري عنها شيئًا.

قرر «دك» أن يفسر قوله بشكل إيجابي.

- رؤية الشخص الحسَّاس للأمور أفضل من رؤية الشخص الحذر.

- لم يخطر هذا ببالي.

- «إنجيل متى، 8-11».

- حقًا؟

- الثامن أو التاسع.

- سيدي الفاضل «دك»، أنا سعيد أن الظروف مكنتني من التعرف على شخص مثقف مثلك. هل يمكنني أن أستأذنك في بضع لحظات من وقتك. هل يمكنني أدعوك لشرب القهوة في مكتبي أو أن أدعوك لتناول الغداء في المطعم؟ إذا لم يكن هذا يضايقك، أفضل أن أدعوك للغداء.

- بالتأكيد. أن تعتبرنا أوروبا صعاليك لا يعني أنه لا يمكننا أن نتناول الغداء بشكل مهذب ورائع.

- ما كنت لأعبر عن هذا بشكل أفضل. هل تعرف ذلك المطعم الجديد في شارع «هوسيتسكا»، كان يُسمى على ما أعتقد «بود بلاتانم»؟ ما رأيك أن نتقابل غدًا ظهرًا؟

- سيكون هذا شرفًا لي.

(30)

تحدث «يرجي سفيراك»:

- لماذا أتيتِ إلى «براج»؟

- كما قلت لك، لديَّ مقابلة مع البروفيسور «بيلان».

- أهو خطيبكِ؟

- كيف يكون خطيبي؟! إنه بروفيسور.

- وهل هذه مشكلة؟

- بالتأكيد. أعني بالتأكيد لا، لم أفكر بالأمر هكذا، أريد أن أقول إنه بروفيسور في الأكاديمية.

- أها.

- أكاديمية الفنون الجميلة.

- متزوج؟

- بالتأكيد.

- إذن هو عشيق.

احمر وجه الآنسة «ريزوفا».

- لا، ليس لي عشيق. ما زلت أقول لك إنه بروفيسور.

- حسنًا، أتيتِ من أجل مقابلة البروفيسور «بينال».

- «بيلان».

- «بيلان». مكان المقابلة؟

- بالتأكيد في الأكاديمية.

- هل أتيتِ من محطة القطار بالترام؟

- نعم. وصلت ثم ضللت طريقي، تأخرت عن الموعد، كنت أتصبب عرقًا.

- لحظة. قلتِ إن فاعلًا مجهولًا هاجمكِ في شارع «بوكليتشوفا».

- أجل، هناك في الممر.

- تقولين إنكِ كنتِ في عجلة من أمركِ. إذن ماذا كنتِ تفعلين في «بوكليتشوفا»؟

- كما أقول لك، كنت متعجلة من أجل المقابلة.

- قلتِ هذا بالفعل. أنا أسألكِ ماذا كنتِ تفعلين في «بوكليتشوفا»؟

- في «بوكليتشوفا» هاجمني ذلك الشخص.

- كنتِ تقولين هذا أيضًا. لكن كي يستطيع هذا الشخص أن ينقض عليكِ، كان يجب عليكِ أن تأتي من أجله في «بوكليتشوفا».

- أنا لم أذهب من أجل أي شخص. أتيت من أجل مقابلة البروفيسور «بيلان». وهو انقض عليَّ من الممر.

- البروفيسور؟

- لا! ذلك الشخص!

- محطة الترام في ميدان «سوفيتشتي هرديني»، وكذلك في شارع «روزفلت». إذًا كيف وصلتِ إلى «بوكليتشوفا»؟

- حسنًا، عن طريق شارع «هولاروفا»، حسبما أعتقد.

- تعتقدين؟ أم أنتِ متأكدة؟

- متأكدة أنني وصلت إلى «بوكليتشوفا» من خلال شارع ما. أعتقد أنه يسمى «هولاروفا».

- وصلتِ بالترام.

- كما أقول.

- تصرين أنه كان هناك موعد مع البروفيسور «بينال» في الأكاديمية.

- «بيلان». أجل. وما السيء في هذا؟ صديقة والدتي كانت شاهدة على زواج ابنته.

- لا أقول إن ذلك سيء. فنحن في النهاية لا نعيش في القرن الماضي، أليس كذلك؟ أنت تصرين أنه كانت لديكِ مقابلة مع البروفيسور في الأكاديمية.

- أجل، أكاديمية الفنون الجميلة.

- إذًا، ماذا كنتِ تفعلين في «بوكليتشوفا»؟

- ما هذا، ماذا كنت أفعل في «بوكليتشوفا»؟ لماذا تسأل باستمرار ماذا كنت أفعل في «بوكليتشوفا»؟ هناك هاجمني ذلك الشخص.

- أتعرفين؟ فلنتناول الأمر من بدايته. في أي ساعة وصلتِ إلى «براج»؟

(31)

سار «وليام لبيدا» متوجهًا إلى منزله، فقد كان معتادًا أن ينزل من الترام قبل محطته بثلاث محطات ويكمل الطريق مشيًا. إنها طريقته في التخلص من عناء العمل، لَكَم كان هذا مجديًا. عندما يصل إلى المنزل، يتناول العشاء، يرتدي ملابس النوم، يشرب النعناع، يستمع إلى إحدى حفلات الموسيقى، خاصة موسيقى الآلات الوترية. منذ وفاة أبيه، يعيش وحيدًا في شقة من ثلاث حجرات.

ذكرته تلك الوجوه المتبلدة لنواب البرلمان على اللوحات المعلقة في المجلس المحلي باقتراب الانتخابات. الشخص المناسب في المكان المناسب. يشارك «لبيدا» في الانتخابات بانتظام، معتقدًا أن المشاركة في الانتخابات مرتبطة بشكل راسخ بحق المواطنة الكامل. ولكن عام بعد عام، أصبحت الانتخابات أكثر مشقة. مع الوقت، صارت تلك الوجوه المتبدلة أكثر بلادة، وأصبح هذا الأمر يشكل لـ «لبيدا» معاناة أكبر. لقد اخترناكم، فاختارونا. على عكس غالبية المواطنين، يعتبر «لبيدا» النظام الديمقراطي نظامًا غير مثالي. ولكن إيمانه بالمستقبل، الذي كان يستشعره قبل عشر سنوات، قد تلاشى. كان لهذا المواطن «البراجي» الحق على الأقل في شيء واحد: حماقة الإنسان هي الشيء الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يُعطي أسوأ تصور عن المطلق.

لو سأله أحدهم اليوم، «لبيدا؟» - مباشرة، دون تردد أو مراوغة كما هي طبيعة الشعب التشيكي - «هل أنت ديمقراطي؟»، ما كان ليجيبه مباشرة. انتخب بقلبك وعقلك.

في الواقع، هناك ثلاث إجابات لهذا السؤال. الإجابة الأولى الأكثر عملية لأنها تبدو مقنعة تمامًا: «هل أبدو شيوعيًّا؟» مقنعة لأن كل من يعيش في التشيك يبدو شيوعيًّا؛ لهذا السبب تحديدًا هي مقنعة. الإجابة الثانية، أقل عملية، ولكنها حل بوليسي يمثل الهجوم المضاد: «وهل أنت كذلك؟» أقل عملية لأن الحديث من الممكن أن يَطول؛ طريقة بوليسية لأن المتحدث يُظهر أنه مستعد للاشتباك، وخاصة إذا كان الأمر متعلقًا بالقيم الراسخة، وفي الوقت نفسه، يُشير إلى أن هناك ما يمكن تبادله مع هذا الشخص المقصود. أما الإجابة الثالثة فهي أقل تأثيرًا من الناحية الاجتماعية، ولكنها ملهمة من الناحية العقلية: «من المفترض أن نحدد أولًا ماذا تعني الديمقراطية».

الأرض للشعب. حكومة أفضل لحياة أفضل. معًا ضد الفساد.

سؤال كهذا على كل حال أربك «لبيدا». ما الذي يُفترض أن يصدقه شخصٌ يؤمن بالمبادئ الإنسانية، وبدقة أكثر يؤمن بعزة النفس. الجمع بين عزة النفس والديمقراطية بدا غير ممكنٍ، ففي الديمقراطية يحكم الشعب، وليس الإنسان، والشعب لا يؤمن بالكرامة أكثر من إيمانه بنفسه.

الشعب يُقرُّ قيمًا أخرى.

كان «وليام لبيدا» ليتردد في الإجابة لأنه سبق له أن راهن كثيرًا على النظام وعلى الأعراف الاجتماعية كما راهن على الحرية الفردية. ولو سحق «وليام لبيدا» في داخله كل القيم ونسي تربية والديه، كان من الممكن أن يعلن نفسه مناصرًا للملكية. الملكية المستنيرة بضاعة نادرة، حدث هذا

عدة مرات، في المقابل، لم يحدث أن رأى أحدهم الديمقراطية المستنيرة. الجمهورية شيء جميل، ولكن يجب أن تكون هناك طريقة لإزاحة الشعب. التغيير معنا.

شعر «وليام لبيدا» بالخجل من تفكيره هذا، فهو الرائد السابق، وعضو الجمعيات الدولية سابقًا، وما زال حتى اليوم هو المُحسن الملعون. تنهد، أخرج البايب وحك رأسه بطرفه.

اليوم سينام مبكرًا. يجب أن يكون غدًا في كامل لياقته: هناك حوار ينتظره مع السيد «دك».

(32)

لا بد أنه كابوس على الرغم من أنه لم يبدأ بشكل مزعج. كان هناك ضوء ضبابي غير محبب يشي بأن اليوم لم يبدأ بعد. مع ذلك، كان هناك صبي صغير يجلس على الحاجز الحجري على حافة الطريق المقابل لمحطة الأتوبيس. يمسك بقطة صغيرة وضعها في حجره وهي تقاومه، يحاول أن يصيبها في عينها بعود خشبي.

وبهدوء، انحنى «دك» الابن والتقط حجرًا صغيرًا وأصاب به الصبي. صرخ الصبي، قفز وترك القطة. صرخ:

- أيها الوغد!

سال الدم على جبينه. ومن مكان قريب، بدأ كلب ما بالنباح، انضم كلابأخرى. التقط «دك» الابن حجرًا آخر. جرى الصبي هاربًا. نبحت المزيد من الكلاب. وأحدٌ ما فتح نافذة بيته الخشبية.

قطع «دك» الابن القرية واتجه إلى المقبرة. وبالتدريج، خَفُت نباح الكلب. أدرك «دك» الابن أنه نسي بالمحطة شنطة السفر، أو الحقيبة.

توقف مترددًا.

تحسس في جيبه عدد السجائر المتبقية. ست. رائع! لا يعنيه أي شيء آخر. هذه الكمية ستكفيه لساعتين فقط - ولا دقيقة أخرى، على أقصى تقدير. أليس من المفترض ألا يعير هذا الأمر اهتمامًا؟ هل ينتظر الأتوبيس ويعود إلى «خوموتوف»؟

أنا هنا بالفعل.

فتح بوابة المقبرة. سبعون أو ثمانون قبرًا. تعود القبور الثلاثة الأقدم منها إلى بداية القرن التاسع عشر. يرقد في هذه القبور «ماتيي بارتوشكا»، كاتب المكتب المحلي التابع للإمبراطور، و«ميني فيرتيستي فيلهلما كلين»، زوجة كبير الخياطين في «هرادك»، و«أليساندرو كاتالانو» موظف ما في البلاط النمساوي. عالمية المقبرة تدل على حتمية المصائر المثيرة هذه.

كانت غالبية القبور أحدث من سابقتها بنصف قرن أو قرن كامل. بدأت تظهر تدريجيًا إلى جانب الصلبان الحجرية صلبان أخرى نحاسية، وبعض شواهد القبور بدأ يُصنع جزء منها من الرخام. الأسماء التشيكية قليلة، ولكن من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا: الوافد الأخير كان «يان ريبا»، 5/1/1932 † 16/6/1939.

إلى جانب الجدار الشرقي، كان هناك صف من اثني عشر مصلى أمر ببنائها القس «ديتمار دورنياك»، وعلى كل منها نحت بنفسه مجموعة من العبارات المقفاة تشير إلى هذا القبر أو ذاك، وزودها بصلبان معدنية مع أرقام دالة.

1. للأم الطيبة جدًا:

هنا ترقد الأم الطيبة مع أطفالها، لطالما اهتمت بهم وعملت على راحتهم.

5. للبائسين:

حياة الإنسان مليئة بالبؤس والغم والحزن، نادرًا ما يكون فيها سعادة ورضا.

30. للمريضة بشدة:

وجهها كله تقريبًا مُغطى بالدمامل، ولتنهي هذا البؤس، فضلت الموت.

38. لكل الفانين:

مع كل نَفَس يقترب الإنسان من الموت بشكل أسرع، تَهنُ الصحة والقوة والحياة، وبسرعة ليس هناك المزيد.

سار «دك» الابن بين القبور. يمكن للقبور المرقمة أن تزول، مات القس «دورنياك» في عام ، ولم يفكر أحد بعد ذلك في الاستمرار في هذا العمل. تنبأ «دورنياك» بهذا مسبقًا فنقش نقشه الخاص على الضريح الأخير منها:

«من يكتب الشعر في الحياة، يجد فيه السلام والنظام، فليغضب العالم ويثور، ولكنه سيظل كما هو إلى الأبد».

كان «دك» الابن في منتصف بحثه تقريبًا عندما سمع صوت ضجيج قادم من البوابة. إنه هذا الصبي مع ضمادة على مقدمة وجهه وخلفه رجلان، يبدو أن أحدهم الأب والآخر الجد؛ العجوز يمسك بيده بندقية والأب يمسك بمجراف. صرخ الطفل:

- هذا هو!

صرخ الأب ملوحًا بالمجراف:

- أنت، تعالَ إلى هنا أيها الوغد!

صمت الجد وبدأ التصويب.

شعر «دك» الابن بالخوف الشديد. فآخر مرة وُجهت له لكمة عندما كان في سن السابعة عشرة، وذلك من بعض عُمال البناء، كانوا في انتظار ترام الصباح الأول في مدينة «فيسوتشاني». كان «دك» الابن عائدًا من حفل شُربٍ صاخب مع صديق له، مع «ميخال ستافاريتش»، ولذلك لم يخطر بباله إلا أن يتذاكى مع هؤلاء المتسخين بغبار العمل الواقفين على الرصيف:

- أنتم تكدحون أيها المغفلون بينما نحن نُجْبرُ على الدراسة عنكم.

تبع ذلك مطاردة قصيرة؛ كان يجب أن يتصرفا كي يهربا منهم، أفاقا من ثمالتهما. وأخيرًا، عندما توقفا، قُطِعت أنفاسهما وظنا أن المطاردة قد انتهت، طارت إليهما من الخلف من ركن ما آنية معدنية وأصابت «دك» الابن في قفاه، تلقى «دك» الثانية على الرصيف، أطلق «ستافاريتش» اللعنات وهرب، احتشد الرجال حول «دك» الابن وأوسعوه ضربًا.

- أقول لك تعالَ إلى هنا!

اقترب حاملا المجراف من ناحية الوسط وانعطف حامل البندقية مقتربًا. وقف الصبي في وسط البوابة يرقص في فرحة. جرى «دك» عبر القبور نحو الجدار المقابل.

فإمَّا أن يحاول أن يستدرجهم بالجري بأقصى سرعة إلى الممر الجانبي ثم يعود مرة أخرى إلى البوابة، عندها سيكون على حامل المجراف، إمَّا أن يقفز من فوق القبور، أو يتسلق الجدار. بالتأكيد لم يتبقَ له الكثير من الوقت للتفكير.

- قف! هل تسمع؟

الأضمن أن يتسلق الجدار.

- أطلقْ النار، ماذا تنتظر؟

سيطر الرعب على «دك» الابن.

- توقف وإلا أطلقت النار!

أسرع في ركضه واستعد لتسلق الجدار عندما دوى من خلفه صوت طلق ناري.

أيقظه هذا. كان راقدًا على دكة في قاعة الانتظار الفارغة بالمحطة، أسفل رأسه شنطة سفر ومعطف يغطي جسده بينما يتسرب من الخارج ضوء ضبابي غير محبب.

(33)

كانت «براج» متوهجة في حرارة شمس الصيف، وسُحب الغبار أسفل عجلات السيارات تتصاعد إلى صدور المواطنين دون أن تميز بين جنس أو عمر أو دين. كانت «براج» عاصمة البلد الجديد الذي دارت حوله صراعات حامية الوطيس لمدة عشر سنوات. يحب التشيكيون الصراعات العنيفة ما لم يتعرضوا لتهديد من أحد بأنه سيمزق أحشاءهم وهذا الشخص غالبًا ما يكون منهم، شخص قوي وشعبي. هل هذا البلد هو التشيك، جمهورية التشيك، تشيكيا، تشيكومورافيا؟ الأراضي التشيكية؟ هل يمكن أن يُغير هذا من حقيقة أنك لو عشت هنا مائة عام فسوف تصطدم مرة أخرى فقط بالحمقى. هو شخصيًّا لم يشك في أن وجود الأمة التشيكية له من الناحية التاريخية المبكرة نسبيًّا طابع انهزامي، والذي تغلغل بمرور الوقت حتى وصل إلى الصورة التي هو عليها اليوم. يقصد «دك» أنه لو العالم سار نحو المؤخرة (كناية عن ذهابه إلى الهاوية) فسيلعب التشيكيون في هذه الرحلة دور المستكشفين التاريخيين: المستقيم، الشرج، الأمعاء، القناة الهضمية فهذه المناطق معروفة جيدًا لكل تشيكي.

تضم العاصمة نحو 1169106 أنفس، هذا إذا أمكننا أن نطلق كلمة نفس على كل المواطنين دون تمييز، وهو أمر يتوافق مع تعاليم المسيحية ولكنه يتناقض تمامًا مع آراء «دك».

اتجه «فيكتور دك» إلى شارع «دوبروفسكي». قام طفل ما برسم رَجُلٍ على رصيف المشاة كي يُكملَ ببراعة الموتيف المتكرر في روايتنا (كانت هناك حكايات وشخابيط من كل نوع).

التقط «دك» غائط كلب ما بعصاه وقذف به خلسة وبلا مبالاة إلى ذلك الحقل القريب المسمى السماء.

يقع بنسيون «بود بلاتانم» سابقًا، مطعم «أو دوبريهو بيدلا» حاليًا على ناصية تقاطع شارعي «هوسيتسكا» مع «فيليسلافينوفا». له باب ذو درفة واحدة له إطار ومغلف بطبقة فولاذية، له مظهر يوحي بأنه مضاد للهجمات النووية. معلق على الباب ملصقان، الأول مصقول بطبقة من المينا والثاني مصنوع من ورق الكرتون.

الملصق الأول يعلن بخط دائري كُتب بخط «ريترو»:

«طعام شهي، إقامة طيبة!».

والملصق الثاني تحذيري:

«نحن نبتز السائحين».

بدا هذا للنزلاء مضحكًا، لكنه لم يمنع صاحب المطعم أبدًا من استغلال السائحين. بل إن هذا الإعلان ساعد على سرقة هؤلاء المغفلين وكأنه عمل وطني بطولي.

خاصة أن السائحين كانوا يتعرفون على كلمة سائح المكتوبة على اللافتة رغم تصريفها نحويًّا وفقًا لنمط اللغات السلافية، وكانوا يتزاحمون على باب المطعم بشكل أوتوماتيكي. ويصرخون عند الباب

«سائح، سائح، نعم، بالتأكيد!».

وبالنسبة للزبائن المحليين، فقد كان هذا التحذير يعطيهم إحساسًا لطيفًا زائفًا بأنهم سيكونون آمنين في هذا المكان.

عندما دخل «دك» الصالة، لوح له «لبيدا» الجالس على طاولة بجوار النافذة. كان أمامه كوب مياه معدنية وطبق من المكرونة الإسباجيتي يبدو أنه قد تناول بعضه غير مدرك أنه يلتهم نشويات ثقيلة.

عندما وضع «دك» قبعته جانبًا وجلس على المقعد الخالي، قال «لبيدا»:

- معذرة، لم أستطع انتظارك. جريت اليوم كثيرًا لدرجة أني شعرت بالجوع قبل موعد الغداء بساعة.

بادره «دك»:

- خيرًا فعلت، دائمًا ما أتأخر عشرين دقيقة على الأقل.

اقترب من الطاولة جرسون شديد النحافة، وألقى بالمنيو على الطاولة بتأفف. ونطق بصوت متحشرج:

- بيرة؟

قال «دك»:

- أرغب بكأس نبيذ أحمر. هل هناك نوع فاخر؟

أجاب الجرسون، وهو بالتأكيد يتطلع إلى فرصة كي يضع أحد هذين الاثنين المستفزين، الذين يطرحان أسئلة غبية ويشعران بأنهما يمتلكان المطعم، في حجمهما الطبيعي.

- «فرانكوفكا» أو «فرانكوفكا».

لم يستطع «دك» المُحْرَج أن يمتعض:

- حسنًا، 200 مللي «فرانكوفكا».

ابتعد الجرسون.

شكَّلا ثنائيًّا مضحكًا. كان «لبيدا» عملاقًا أو على الأقل ضخم البنية. بينما بدا «دك» إلى جانبه ضئيلًا معتل الجسد. يتمتع «لبيدا» بوجه مستدير، أنف عريض، حواجب كثيفة، وبالنسبة إلى عمره، يغطي رأسه عدد لا بأس به من الشعر. كان وجه «دك» مفصلًا بشكل مستقيم وطرف أنفه يكاد يلامس شفته العليا وعلى رأسه عدد شعر أقل من شعر «ماكس»، الذي كانت لديه شعرة واحدة حمراء أراد «كومانتش» أن ينزعها عنه وهو يضع فلنكات السكة الحديد.

قال «دك»:

- من غير المعتاد أن يتناول المرء غداءه مع ممثل الشرطة.

- مفتش.

- قد يعتقد المرء أن هذا يحدث فقط في الكُتب.

- الحياة رواية، ألا تظن ذلك؟

- رواية تكتبها الحياة.

- أجل.

- واضعة المصير في قلم الكاتب.

- هكذا.

- يبدو لي هذا مألوفًا.

- معك حق. الحياة كالكتاب.

- ماذا ينقصه أيضًا؟

- بعض الكتب تكون صريحة ومأساوية.

- بعضها مصيري.

- هذا مؤكد.

- وهناك أيضًا كتب فاضحة.

قال «لبيدا» منافقًا:

- تعلم أنني لست قارئًا شغوفًا. ولكن بين الحين والآخر أقرأ شيئًا، أجل. منذ فترة كبيرة، صدرت ذكريات «يان كارمويل زليبوفيتش». في طبعة جديدة. كتاب مثير.

استعد «دك» للإجابة - الحوار مع «لبيدا» مغرٍ جدًا - عندما ظهر أمامهما كأسا نبيذ أحمر.

- هل قررت ماذا ستطلب؟

نظر «دك» إلى المنيو.

- دقيقة أخرى.

في هذه الأثناء، كان «لبيدا» قد أنهى طعامه وأزاح الطبق جانبًا ومسح فمه بالمنديل وأشعل غليونه.

- ممنوع التدخين هنا.

- حسنًا! إذًا لماذا تضعون هنا منفضة السجائر هذه؟

غضب الجرسون:

- أحدهم وضعها هنا.

- لا أشك في هذا.

كان «دك» مستمتعًا بذلك، كاد أن يقهقه.

- قطع دجاج «إي لا تشونج – فو».

يُقدمون هذا رحمة باضطرابات المعدة الشديدة. الدخان يتصاعد من الطبق، والأمعاء تعلن العصيان.

فلتذهب إلى الجحيم.

- أنا أريد بعض الحلوى، لكنني سأنتظر صديقي.

كان «لبيدا» «يُشعل» غليونه، بينما «يَشتعل» الجرسون غضبًا. كل شيء يتوقف على تَغيُّر شكل الفعل في اللغة التشيكية.

- كنت أقترح أن ننسى أمر المفتش.

تابع المفتش حديثه عندما غادرهما الجرسون محرجًا.

- ببساطة سندردش. فأنا جديد في هذا الحي. أنت تعرفه، أما أنا فلا.

- أعرفه؟ أقيم هنا منذ خمسين عامًا.

- كما ترى. لم أكن حينها قد ولدت.

قال «دك» متأدبًا:

- ليست غلطتك.

- من يعلم؟ هناك أشياء كان من الممكن أن نؤثر فيها لو أردنا، ولكن من كان يعرف ذلك.

- لا تأخذ الأمور على هذا المحمل.

- أصدقك القول، أنا لا أفكر على هذا النحو. ماذا عنك؟ انتقلت إلى هنا بعد الحرب. لكنك كنت تعيش في «براج» من قبل، فأنت ولدت هنا.

- من قال لك هذا؟

- لا أعلم. قرأت هذا في مكان ما. أو ربما في التليفزيون..

- نشأت في «ماليشيتسه». في فيلا بحديقة. صادرها الشيوعيون منا. تلك الشقة ورثتها عن المرحومة زوجتي.

- حقًا؟ يؤسفني ذلك.

- ليس الأمر سيئًا إلى هذا الحد. حجرتان، وحمام، ومطبخ.

- لم أفكر في الأمر هكذا.

- ولا أنا.

ابتسما لبعضهما وكأنهما صديقان.

- ولكن لماذا تسأل؟

- نقلوني إلى هنا منذ وقت قريب. أعتقد أنني سأظل عامًا آخر أيضًا. أحببت أن أضع تصورًا للمكان. للوهلة الأولى، بدا المكان هادئًا، ولكن كما تعلم المظاهر خداعة.

- هل هناك قضايا؟

- يبدو أننا نتبادل الأدوار. من المفترض أن أسأل أنا. نعم، معك حق، كانت هناك عدة قضايا في الشهور القليلة الماضية.

فجأة ظهر أمام «دك» طبق الأرز المدخن مع قطع اللحم الصفراء وبعض الخضار.

- قضايا مهمة؟

بدا وكأنه قيء وحيد قرن.

- لو لم يكن هذا سر من أسرار الأمن القومي.

وخز «دك» قطعة الدجاج المتماسكة بالشوكة.

- مهمة، هذا يتوقف عليَّ. عادة ما يعتبر الناس القضايا المهمة ما يحدث لهم أو ما قد يحدث لهم. التدمير أكثر خطورة من الجريمة، الناس لا يصدقون ذلك.

الجريمة دراماتيكية، لكنها ليست بهذه الأهمية.

- هل وقعت جريمة في هذا الحي مؤخرًا؟ لا أعلم عن هذا شيئًا.

- كان هذا مجرد مثال.

- أها. هذا سر من أسرار الأمن القومي.

- فلنقل أنني ملتزم بالصمت فيما يخص القضايا الحالية. لكن يمكنني أن أحدثك عن قضية قديمة. عن طريق الصدفة، وبعد أربعين عامًا، وجدت على المكتب جريمة وقعت في جبال «كروشني هوري». هل تعرف هذا المكان؟

- خيمت هناك عدة مرات كعادة الناس في تلك الفترة.

- قالوا في التليفزيون إنك التقيت بزوجتك في رحلة سياحية، لكنهم لم يقولوا أين.

- هذا شيء لا يخصهم. لكنك تحدثت عن جريمة.

- آه نعم، تلك القضية القديمة التي لم تُحل. امرأة شابة، ست عشرة طعنة. قال الطبيب إن المجرم حاول أن يلفت نظر المحققين إلى وجود مجنون. بدا أنها طُعنت بهدوء وتدبر، لا وجود لدافع عاطفي. كانت إحدى الطعنات قاتلة، من المحتمل أن تكون الأولى أو الثانية. وقع ذلك في مكان منعزل بالقرب من «ميدفيدي سكالا».

لم يتم العثور على الفاعل.

- وأنتم تبحثون عنه الآن بعد أربعين عامًا؟

- قبل ذلك بأيام، اختفت بعض الكتب النادرة من دير في «أوسك»، وكذلك أصولها. وكأن الأرض انشقت وابتلعتها، لم يسمع عنها أحد أي شيء على حد علمنا.

ولكن يقال إنهم رأوا هذه المرأة صغيرة السن في «أوسك».

- وهل تبحثون عنه؟ ألم تقل أنت بنفسك إنها قضية قديمة.

- أريد في المقام الأول أن أستوعب الأمر. أن أفهم. أنت تعلم أن هذا مرض المهنة. ولكن دعنا نتحدث عنك. هل تكتب شيئًا جديدًا؟

- معذرة، في هذا العمر.

شعر «دك» أن طقم الأسنان بالأعلى جهة اليمين متزحزح من مكانه.

- فلنترك هذا للشباب.

رفع بالشوكة لقمة أخرى إلى الجهة الأخرى.

- وماذا عن ابنك؟ الابن سر أبيه كما تعلم.

- ماذا؟ لكنه ليس كذلك.

- لم أشأ أن أكون وقحًا.

- ليست هناك وقاحة في الأمر. لا يستطيع حتى أن يصيغ جملة واحدة، فما بالك بالكتابة.

- يعيش في «براج» أيضًا؟

- في «ينونيتسه» في «براج».

- متزوج؟

- على علاقة.

- هذا شيء عادي هذه الأيام. لديه أطفال؟

- لا، على حد علمي.

- أنا أيضًا ليس لديَّ أطفال. ولكنني شاب متقدم في السن. أعتقد أننا في نفس السن تقريبًا، أليس كذلك؟ أنا وابنك. سوف أبلغ السادسة والأربعين في يناير.

- حسنًا اسمعني، هل أنت حقًا مهتم بقضايا عمرها أربعين عامًا؟

- جزئيًا، عندما يتبقى لي بعض الوقت. كما تعلم، أشعر بضعف أمام هذه الأمور. قضايا الإجرام غير المحلولة، الألغاز، الأحاجي المنطقية، الشطرنج، وما إلى ذلك.

هل تلعب الشطرنج؟

وضع «دك» الشوكة جانبًا وأطبق على طقم الأسنان.

- لا.

- اعتدت أن ألعب الشطرنج قليلًا في شبابي. فقط من أجل الاسترخاء، لا شيء مميز.

- إذن نحن اثنان. تحريك القطع هنا وهناك، ما زلت أستطيع ذلك، ولكن أبعد من ذلك لا.

- تركت هذه الأمور. نعمت بفترة من السلام. أنت تعلم، الشباب، السلام.. الحرب على رقعة الشطرنج. جيشان في مواجهة بعضهما، الأفيال، والفرسان، والعساكر..

- ما كنت لأقول حربا.

- لا؟

- بالأحرى مذبحة.

- يجب أن تشرح لي هذا.

- لا يتعلق الأمر بهزيمة الجيش أو تفتيت جيش العدو. ليس بالضرورة. الهدف الأوحد في اللعبة هو

قتل الملك. فقط هكذا يمكنك الفوز، لا توجد طريقة أخرى للفوز. إما، أو.

- معك حق. يمكن النظر للعبة من هذه الناحية.

- «شاه مات» أو «كش ملك»، أي الملك ميت بالفارسية. ولتحقيق هذا، تكفيك حركتان فقط.

- اثنتان؟ ظننت أربعة.

- اثنتان. إذا كنت تلعب بالجيش الأسود.

- أرى أنك تعمقت في اللعبة أكثر مني. أما زلت مداومًا على اللعب؟

ابتسم «دك».

- من أين لي بهذا؟ هذا كله عرفته بالقراءة.

رفع كأسه.

- في صحتك يا سيدي المفتش.

- سيد «لبيدا».

- سيد «لبيدا».

- في صحتك يا سيد «دك». أرجو أن يكون هذا مفيدًا. لا تؤاخذني أنني أقول لك هذا مباشرة، ولكنني بالفعل سعيد لأنه أُتيحت لي الفرصة لأتعرف بك. أنت إنسان لطيف.

- في صحبتك، يصبح أعتى المجرمين لطيفًا.

- أظن هذا.

- الصراحة تُقابل بالصراحة. أنت أيضًا لست سيئًا.

- هل تذهب عادة إلى الحفلات؟

- إلى المسرح. بدأت أقلل من هذا. الجلوس فترة طويلة لا يناسبني.

وكي يؤكد «دك» على كلامه، تململ ألمًا، تمدد في مقعده ومد ساقيه فيما بين الطاولات.

قال «لبيدا» مبتسمًا:

- أرى أنك اشتريت حذاءً جديدًا.

قال «دك» على نحو غامض:

- حسنًا، أتعرف؟ لم أعتد عليه بعد.

- أعلم أن هذا سؤال غير ملائم، ولكن هل يمكنك أن تخبرني بكم اشتريته؟

كذب «دك»:

- لا أتذكر حقًا. لطالما كانت ميزانية المنزل نقطة ضعفي. اهتمت زوجتي لسنوات بالميزانية، وعندما ماتت، لم يكن معي أحد. أتسلم المعاش في السابع من كل شهر، أشتري كل ما أريده، لا ألقي بالًا للنقود. هل يمكن أن تخطو عليه لتباركه؟

- يسعدني هذا. لا بد أن ذلك الفيلم عاد عليك بربح جيد.

- حوالي مائة كرونة. أجل. اليمنى أم اليسرى.

قال المفتش «لبيدا»:

- اليسرى، فاليسرى أقرب إلى القلب.

داس على القدم اليسرى للسيد «دك» كنوع من مباركة الحذاء الجديد.

(34)

في تلك الأثناء، كان «يرجي سفيراك» واقفًا عند ملهى «أو أداما» في ميدان «ربوبليكا»، ممسكًا في يده بكأس، كان يراقب شخصين في الجهة الأخرى من البار، حيث كان يستطيع مراقبتهما من مكانه. وصل منذ حوالي نصف ساعة من فندق «زبراسلاف». كان في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، أما هي فتصغره بحوالي عشر سنوات. اهتز «سفيراك» فخرًا وحماسة؛ ربما لأنه يعيش قضية العمر، وربما يكون سببًا في أن يُسجَّل اسمه في السجلات التاريخية لعالم الجريمة وكذلك السجلات الوطنية. اليد الأخرى تمسك بورقة مجعدة، مكتوب بها: «روبرت وآدم، تتبع بالفأس تلك النقطة التي تلوح هنا وهناك. الفارس مع المصباح. «جينيف» ليست «زبراسلاف». فسيدة المدينة الآن ليست امرأة».

تمكن من حل شفرة النص عن طريق استخدامه لتوليفة من عدة طرق تقليدية لحل الشفرات، وكذلك بعض اللوغاريتمات التي طبقها على مجموعة من الشعارات المناهضة للإعلانات، تمت صياغتها خلسة على مكتب «لبيدا». كانت نظرية «سفيراك» كالتالي: ماذا لو كانت تلك الكتابات المناهضة للإعلانات، والتي ظهرت فجأة في العاصمة، هي في حقيقة الأمر رسائل مشفرة للإرهابيين المسلمين الذين يعدون لهجوم إرهابي انتقامًا للمساعدة التي قدمتها جمهورية التشيك بكل حب لحلفائها في العراق؟ نظرية بلا شك متهورة، ولكنها ليست بالضرورة سيئة: المراسلة بلغة عدوك، ومراقبة كل شيء يوفر قدرا أكبر من التميز مما توفره تلك الثرثرة المشفرة على الإنترنت.

على كل حال، استخرج «سفيراك» من هذه الشعارات بعض الأفكار المخابراتية. واحدة من هذه الأفكار قادته إلى هنا.

بدا أن الرجل ذو أصل سامي، ولكن ليس له أصل يهودي (في هذه الحالة يتعلق الأمر بمؤامرة أكبر حجمًا مما كان «سفيراك» يفترضه). يرتدي بذلة ذات لون رمادي فاتح مع خطوط رفيعة، ورابطة عنق زرقاء حريرية، وجوارب من اللون نفسه، وحذاء أصفر، ونظارة سوداء مستديرة، ويمسك بعصا قابلة للطي.

كانت المرأة عاهرة سلافية مبتذلة.

تخبط «سفيراك» بين سعادته من ذكائه الذي سيكون سببًا في الوصول إلى نتائج ملموسة غير قابلة للشك، وبين الخوف من عدم تحقيقه نجاحًا كبيرًا. نتيجة لذلك، نسي أهم قواعد مهنته وراح يحملق في ذلك الثنائي بوقاحة، بحيث يمكن لأكثر العميان أن يلاحظ هذا، حتى لو كان أعمى مزيفًا. مال الرجل إلى رفيقته وأفضى إليها ببضع كلمات. نظرت العاهرة إلى «سفيراك» ثم أجابته. نهض الاثنان واتجها نحو باب مكتوب عليه WC. تبعهما «سفيراك». تردد للحظة عندما أُغلق الباب. خطر بباله أنه يتصرف كأحمق كبير. ولكن قبل أن يعطي لهذه الفكرة التافهة شكلًا ثابتًا ويخرج منها باستنتاجات من المفترض أن يرسلها بسرعة البرق من مركز الأعصاب إلى وجهاتها المناسبة، شيء ما برق أمام عينيه وفجأة أظلمت الدنيا. كانت الكلمات الأخيرة التي سمعها في ذلك الوادي من العويل منطوقة

بلهجة أهل «براج»:

- هل أنتِ متأكدة أنه هو؟

- لست متأكدة بنسبة 100%.

الإنسان! سيلان الأنف والصفراء، تحطم المرآة، فريسة الوقت، عابر سبيل مغادر!

(35)

رقد السيد «براجاك» في فراشه محاولًا التركيز. تذكر أنه ما زال حيًا، ولكنه نسي لماذا. لم يكن منذ عدة سنوات يُفكر في هذه الأسئلة، لكن اليوم كل شيء مختلف.

منذ حلول الألفية الجديدة والسيد «براجاك» يشعر مع مرور الوقت أنه ليس هو.

كونك تشعر بداخلك وببديهية أنك على قيد الحياة، ليس شيئًا به الكثير من المنطق. إن هذا المرض الذي يُعانيه السيد «براجاك» وهو أن يسأل نفسه لماذا هو على قيد الحياة هو شيء غير منطقي. ولكن إذا كان المقياس الأساسي للمنطق ضروريًا لميلاد حياة في زمان معين، وإذا لم يكن في الوقت ذاته يوجد منطق كافٍ ليكون المرء على قيد الحياة، فهذا يجعلنا في مواجهة سؤالٍ آخر يطرح نفسه: هل السيد «براجاك» موجود؟ هل السيد «براجاك» في الحقيقة هو خداع للذات - جزءٌ غيرُ مَوضُوعي من المحاكاة الإنسانية الهائلة، وهل نحن جميعًا من البداية مجرد ضحايا افتراضيون؟ يا أصدقاء!

فلنتخلَ عن خوفنا من هذه الأسئلة غير المقبولة!

هل نحن حقيقيون؟ ليس سهلًا الوصول في مثل هذه الأمور إلى نهايات حاسمة. علي أي حال، لا وجود في هذه الفرضيات السلبية لشيء ليس محتملًا. العكس تمامًا! بغض النظر عن أن الشك في الوجود هو الدليل الوحيد - وإن كان مشكوكًا فيه - أن وجودنا قائم. لكن المبدأ الأساسي للفلسفة العملية - عدم اعتماد الوعي على الأساس المادي - يعلمنا أن الوجود لا يمكنه الاستغناء عنا.

أجل يا أصدقائي، هكذا نقف على أعتاب حقبة جديدة، مزعزعين وغير قابلين للتصحيح.

آآه! القرن العشرون، القرن العشرون العزيز! أين نهايته؟ الماركسية! التحليل النفسي! البنيوية! السيميائية، السيميائية الغالية! النمطية الفكرية الغالية!

الماركسية اكتشفت مغزى التاريخ، التحليل النفسي وضَّحَ دوافع السلوك البشري، البنيوية كشفت النقاب عن أصول الأساطير وقد بينت السيميائية كل هذا!

ولكن اليوم! ما الشيء الذي نحن متيقنون منه؟ حتى الموت لم يعد يقينًا بالنسبة لنا!

فبالتأكيد إن السيد «براجاك» تأمل قبلنا في الأمور الأقل غموضًا، في إدراك سوداوي، بأننا هكذا نرفع المستوى الثقافي لقرائنا. في كل الأحوال، هذه الثنائية منذ البداية جعلت السيد «براجاك» غير محصن من جميع القُرح المجتمعة بدار المسنين. الكثير من الأشياء تغيرت خلال حياة بشرية واحدة! الكهرباء في كل قرية!

التليفزيون في كل منزل! ويا للعجب ما كان بالأمس جديدًا، أصبح اليوم عتيقًا، وما كان بالأمس غريبًا، أصبح اليوم مبتكرًا. ومن يمكنه أن يُلم بكل هذا؟ ألمانيا تحرر أوروبا! الاتحاد السوفيتي!

العمل الصادق! بسعادة، بسعادة يذهب العامل إلى المصنع! استمرار الحرب من أجل انتصار الرايخ! سأصلُ الآن! من أجل الحرية، «بروليتاريا» في جميع البلدان من أجل «دوبتشك»[2]! من أجل الآلات، لن يمر أحد! يا عمال العالم اتحدوا! حقوق الإنسان!

الصين مثلًا، يا سيدي، كانت بالأمس مجموعة من الفلاحين المتخلفين، اليوم أصبحت القبضة المسلحة لليبرالية الجديدة.

ماذا إذن؟ تقريبًا كُتِبت نهاية واحدة للتاريخ، وما زال أمامنا نهاية أخرى. هناك الكثير من الزنوج في كل مكان في الشوارع! بالأمس كنا نصادف أحدهم!

جاءته مكالمة تليفونية انتشلته من تأمله هذا.

- نعم؟

قال صوت ذكوري:

- السيد «براجاك»؟

- أجل.

- أنت لا تعرفني، لكنني أحمل لك خبرًا سارًا.

-.....؟

- عرض مغرٍ جدًا. ما رأيك أن آتي إليك الآن؟

تعجب السيد «براجاك»:

- الآن؟

- أحدثك من تليفون محمول، أنا قريب منك. سأكون عندك بعد دقيقة.

سمع من خلال السماعة صوت إغلاق التليفون. ارتدى السيد «براجاك» ملابسه، لم يسعفه الوقت لمضمضة فمه، كانت تفوح منه رائحة كرائحة زريبة الخنازير.

تحدث الرجل:

- كما قلت لك، عرض مغرٍ جدًا. اسمي «تشيرني». «رودولف تشيرني».

أسنان معوجة، الفك السفلي لا يطابق العلوي. سترة ورابطة عنق، بنطلون أخضر كاروهات. في منتصف العمر بين الشباب وسن التقاعد. بداية صلع. حقيبة عصرية.

- ما رأيك لو أعطيتك الآن مائة ألف؟

نظر السيد «براجاك» إلى زائره باهتمام أكبر.

- أجل، سمعتني جيدًا. سأضع لك على الطاولة مائة ألف نقدًا، من يدي ليدك.

تريث السيد «براجاك». أخذت معدته تقرقر.

- والآن أصدقني القول: هل توقعت شيئًا مثل هذا؟ هل خطر ببالك بالأمس عندما ذهبت للنوم أنك ستستيقظ ثريًّا؟

هز السيد «براجاك» رأسه. ازداد جوعه أكثر.

- والآن تسأل نفسك، ماذا أريد منك مقابل المائة ألف؟

التزم السيد «براجاك» الصمت.

- سيدي المحترم، لا شيء! لا شيء سوى أنني أريد شراء كوخك بجبال «كروشني هوري» الذي حصلت عليه دون أدنى عناء، ولا تربطك به أي عاطفة، ولن يعرض عليك أي شخص حتى لو كان هولنديًّا مغفلًا ثلث ما عرضته أنا.

قال السيد «براجاك»:

- اجلس، سأعد الفطور.

لم يجلس الزائر بل تبع السيد «براجاك» إلى المطبخ.

- ربما تعتقد الآن أنني فقدت عقلي. أو ربما الموضوع كله مزحة سمجة. لماذا قد يعطيك أحدهم في الأساس مائة ألف مجانًا؟

فتح السيد «براجاك» الخزانة أعلى المطبخ وأخرج منها كوبًا وطبقًا.

- ربما تراودك نفسك أن هذا نوع من غسيل الأموال. أو ربما سأجبرك على أخذ أموال مزيفة.

صب الماء في الغلاية وأدار مفتاح التشغيل.

- لا شيء من هذا القبيل يا سيد «براجاك»، لا شيء.

فتح خزانة أخرى وأخرج منها علبة القهوة.

- سأخبرك ما الأمر.

فتح الثلاجة.

- لأنني لو لم أخبرك لاعتقدت أنني نصاب أو مجنون.

في الثلاجة قطعة من معجنات «كنيدليك» وقطعتان من الجبن المطبوخ.

- في الواقع مائة ألف من أجل لا شيء مقابل لا شيء.

أحضر لبن مكثف غير محلى، وثلاث بيضات، وزبد.

- كل شيء قانوني. واضح. سأستثمر كوخك وأجعل منه نزلًا للسياح الأجانب.

أحضر كَسرولة وصلصة.

- كما تعلم، الألمان والهولنديون.

أين الخبز؟

- يكفي فقط أن نهدم ذلك الكوخ ثم نبني شيئًا معقولًا ونوصل إليه الماء والكهرباء ونمهد طريقًا للسيارات ونبني جراجًا للسيارات وحمام سباحة وملعب جولف.

بالتأكيد تعرف هذه الأمور.

في السلة على الطاولة.

- سيتكلف هذا أموالًا طائلة. أنا لدي المال، أنت لا. كما أنه لا يمكنك أن تستثمر في أشياء كهذه، أما أنا فنعم.

أخرج سكينًا من الدرج. قطع الخبز إلى شرائح ودهنها بالجبن.

- إذن ما رأيك؟ مائة ألف، هنا والآن.

بدأ الماء يغلي.

- من يدي ليدك، كرونات نظيفة. لا عقود، لا رسوم من أجل التوثيق. ثقة متبادلة. مصافحة رجل لرجل.

وضع السيد «براجاك» القهوة في الكوب وصب الماء.

- سوف توقع لي إقرارًا باستلام مبلغ مائة ألف وبعدها يمكنك الاحتفال في المطعم.

وضع ملعقتين صغيرتين من الحليب وهكذا صارت القهوة جاهزة.

- حسنًا، ما رأيك؟ هل نتصافح؟

شرب السيد «براجاك» رشفة من الكوب وأحرق شفتيه. وقال:

- عن أي شيء تتحدث؟ أي إقرار؟ أي كوخ؟ أي هولنديين؟ أنت تعلم أنني رجل عجوز ولا أفهم أي

شيء في هذه الأمور الحديثة. يبدو أنك تظنني شخصًا آخر.

(36)

غريب، منزل غريب! نوافذ مخضرة كجدران أحواض الأسماك، التي تتخبط خلفها الأسماك بشكل عشوائي من التي - وفقًا لنظرية داروين - طورت أطرافها الأربعة وخياشيمها. منزل مريب، سكان مريبون! أطراف مترهلة، أدمغة رخوة، الأكثر لينًا يعيشون في عتمة تطور الكائنات؛ هنا وهناك وميض شاشات التليفزيون، توهج السجائر المشتعلة، الوميض الفسفوري لتلك الكائنات خلال الجماع. منازل أخرى مريبة بجوار هذا المنزل الغريب. في الشارع سوبر ماركت وحيد من دور واحد ومنازل أخرى غريبة.

يسمى هذا المكان ضاحية «جاجارين».

جلس «وليام لبيدا» على كرسيه في غرفة المعيشة وراح يشرب الويسكي. للمرة الأولى في حياته يشتري زجاجة كحول دون أن يكون مدعوًا لأمسية ما. رغم ذلك، لم يخطر بباله تفرد هذا الحدث، جلس وراح يشرب وكأنه آخر السكارى. كان يومه شاقًا، كم كبير من المكالمات التليفونية تشتمل على ثلاث مكالمات من مدن مختلفة وواحدة دولية مع شرطة «بودابست»، أكثر من فاكس، توزيع الشرطيين على الأماكن المختلفة، قراءة تقارير. شهدت الشرطة في «ليبوفا» فوضى غير مسبوقة؛ وجد المرؤوسون أنفسهم مكرهين في البداية، لكن بعد عدة ساعات، وقعوا فريسة للهياج. كان واضحًا أن عليهم أن يقدموا تفسيرًا لزوجاتهم أو حبيباتهم أو أصدقائهم في البار.

حصل «لبيدا» اليوم على المعلومات التي تنقصه. سقطت واحدةً تلو الأخرى مثلما تتساقط قطع البازل عند فكها، كل شيء متناسق، كل شيء مترابط، كل شيء كان واضحًا، يكفي فقط أن تنطلق بالاتجاه الصحيح وكل القطع المبهمة غير الواضحة ستتشكل بنفسها في صورة منطقية وشفافة. كانت النتائج حاسمة وبسيطة بشكل قاتل. كان من المفترض أن يفكر في هذا منذ مدة؛ الإشارة الأولى أعطاها له السيد «براجاك» سهوًا. «إن كان لدي ابنة وانحرفت...».

خَلُدَ «وليام لبيدا» للاسترخاء، ردد في سره جدول «مندليف» للعناصر، ردد قصيدة من ديوان «ساعة عصيبة» لـ «يرجي فولكر»، حاول أن يتذكر قصيدة «أصوات طيورنا»، «تشي شي ري تشي تشي، سي كي كي»، تذكر والدته وجارته الكسيحة المقيمة بالدور الرابع. وتدريجيًّا، غرق في الثمالة، ما كنتُ لأقتلها، كنتَ هكذا لتعرفني بشكل سيء. كانت والدتي مُحقة، فالناس مختلفون. لو أنني داومتُ على لعب الشطرنج بدلًا من العزف على الجيتار لتوصلت للحل منذ وقت طويل، أووو أووو أووو. ما تتعلمه في شبابك، سيُفيدك قطعًا في كِبرك. ماذا كان اسمها الأول؟ «وهووهووهو». الحب ساحر مُسيطر، يُعرِّف الطائر من ريشه، لماذا بدأتُ هذا؟ الوزير 4G، الوزير 2e، لا يُمكن أن تسير الأمور على غير هذا النحو يا صديقي، لا يمكن! ولكن الوزير H3 والعساكر تتساقط. الحب ساحر مُسيطر. يطبخ السم. السم يُطبخ. شيء للأكل، يجب أن آكل شيئًا ما. نهض «وليام لبيدا»، وبغير اتزان، اتجه إلى المطبخ، لكن بعد بضع خطوات غير رأيه، ورجع مرة أخرى.

جلس بصعوبة على المقعد، جذب الدبدوب، وضعه على ظهره، صدرت زمجرة. دجاجتان في مزبلة

واحدة، إذن هكذا. AT 85. هل سنسرف في الشرب؟ فلور، كلور، بروم، يود، أستاتين! لحظة، هالوجين! اعذروني على نطقي السيء. أخ، سيد «دك»، يا سيد «دك»، أنت كاتب مريع. هل تفهمون؟ خارج المدينة، يا حبيبتي، هناك طريق أبيض. نظر بعينٍ لا ترى بوضوح داخل زجاجة الخمر فرأى قاعها، قال: أرجو التحدث إلى السيد! لكن كل الرؤية واضحة، واضحة كصفعة على الوجه، ذلك الليل يحجب الرؤية. أنا أعمى! SB 51، RH 45، ROH 1963. عيوني، فلتسجدي نحو البحيرة. ماذا كان اسمها الأول؟ الأخ. لديَّ هذا مدون في مكان ما. مدون. الناس مختلفون. مختلفة؟ العين بالعين، بالقرب من «هرادتس». كانت الزجاجة فارغة.

(37)

راح «فيكتور دك» ينقر الأرض بعصاه ويفكر في المسرحيات التي لا يستطيعون وضع نهاية لها في اللحظة المناسبة. في اللحظة التي يَرُدُ فيها الممثل على ما قاله زميله، حيث تكون إضافة أي قول بعدها بلا فائدة، في تلك اللحظة التي يقوم الممثل فيها بأداء حركة ما قادرة على إنهاء العرض بشكل مثالي. الآن، أم ليس الآن، قال «دك» في نفسه، الآن اللحظة المناسبة، من المفترض أن يكف عن هذا ما دام هناك متسع من الوقت. بالتأكيد القارئ أدرك أنه ليس هناك ما يمكن فهمه: ماذا يمكن أن تقدم له الخاتمة الهادفة للرواية؟ التصالح مع المصير، التصالح مع القدر، التصالح مع العيوب. هذا بسيط ومنصوص عليه في التوراة! تقديم كتب بلا نهاية، قراءتها تسبب الإنهاك للنفس. أجل، نولد في رواية لا نفهم مغزاها، ونرحل عن رواية لم نفهمها قط. إما الآن أم لا! أثبت الكاتب براعته وأنه على دراية بكل الأجناس الأدبية، أكثرَ من الحبكات، حشدَ الأدوات الأسلوبية، قدمَ للقارئ تعليقات ساخرة قاسية ونقدًا اجتماعيًّا لاذعًا. الآن أم لا! لم يفهم أحد شيئًا، حتى لو فهموا، في عمري هذا لا يمكنهم سجني. هناك قوانين. لكن لا: العرض مستمر، الرواية مستمرة، الحياة مستمرة، بشكل محرج، دون جدوى، دون متعة. الكل يعرف أن الأفضل قد مضى، لكنه يجلس في مقاعد الجمهور كالأبله حتى النهاية بدلًا من أن يخرج سريعًا حتى لا يضطر إلى الوقوف في الطابور من أجل الحصول على معطفه.

(38)

كان السيد «براجاك» على عجلة من أمره حتى بلغ مقدار سرعته 1.6 كم في الساعة، على عكس سرعته المعتادة 1.3 كم. ولكن لا يمكن لقليلي الخبرة أن يلاحظوا على هيئته شيئًا غير عادي، ولكن دور الراوي أن يُخبر القارئ بالحقائق التي تظل مجهولة للآخرين.

كان السيد «براجاك» في عجلة من أمره. خطرت له صباح اليوم بعض الأفكار وتذكر أنه منذ أسبوع تقريبًا وهو يفكر في موت السيدة «هوراكوفا» المفاجئ. يعرفها منذ فترة طويلة نسبيًا، معرفة عامة، لم تكن السيدة «هوراكوفا» من الرواد الدائمين لمقعد الحديقة، خاصة إذا منعها من ذلك الروماتيزم، كانت تفضل التنزه في الحديقة، وحدها أو مع السيد «دك»، ساقاه ما زالتا سليمتين، رغم أنه يؤكد العكس.

لكنه علم، أم لم يعلم، فالإنسان في هذه السن لا يمكنه أن يختار، وإن الموت بأي صورة هو انتهاك مرحب به، خاصة في تلك الأيام التي لا طعم لها.

ولتوافق ظروفهما معًا، التقى السيد «براجاك» السيدة «هوراكوفا» في السوبر ماركت قبل وفاتها بفترة وجيزة. رجعا معًا بعد التسوق، وتحدثت معه السيدة «هوراكوفا» بالتأكيد عن ابنتها وبعد ذلك عن جبال «كروشني هوري» وعن جبل آخر وعن الدببة. كان السيد «براجاك» متأكدًا أنه سمع بعد ذلك اسم «دك».

ولكن ما علاقته بكل هذا؟

استرجع السيد «براجاك» الحديث مباشرة، كيف عرف بموت السيدة «هوراكوفا»، ومنذ ذلك الوقت ورأسه يدور. حتى صباح هذا اليوم.

توجه السيد «براجاك» إلى ميدان «روزيفيلتوفا ترشيدا»، واستعد للعبور إلى الجهة الأخرى عندما اندفع من شارع جانبي حشد به 35 شخصًا تقريبًا. سيدة تلوح بعصي الاستعراضات، أخرى تحمل بالونات، وأخرى تحمل لافتة كُتب عليها:

«قولي نعم للحياة، أتريدون أن تظلوا مجرمين؟ أم نطالب بمنع الإجهاض؟».

أخذت تجوب المكان حشود كبيرة دون توقف، مسرعين نحو النصب التذكاري لـ «ستالين» كي يستمعوا إلى خطاب أمينة الحزب الأولى التي كانت أمًّا للجميع.

المواطنون القادرون على الإنجاب يحملون على أذرعهم أطفالًا مختلفي الأحجام، يمسكون بدورهم ببالونات أو عصي الاحتفالات، والمواطنون الذين لا يوجد معهم أطفال يستعرضون برايات وشعارات تُظهر أن عزيمتهم (صلبة أو قوية) والهدوء (صلب أو قوي).

كان ذلك في وقت اتصل به الحاضر بالماضي، والعكس. من وقتها استطاع أن يتخيل أن الشعارات

ستصبح على غير المتوقع دون أهمية؛ لأنه عندما قام الشعب التشيكوسلوفاكي بإزاحة النظام الغاشم بهز ميداليات مفاتيح الثوار، اتضح أن المستقبل متجسد في الحاضر، ومرتبط بالتأكيد بالماضي: إنها ببساطة قضية الوقت.

لماذا لا نغتنم الوقت يا أصدقاء! فلنعد إلى حكايتنا.

التفت أحد الشباب ناحية السيد «براجاك»، ووضع أسفل أنفه ورقة مكتوب عليها:

«عريضة مدنية».

وسأله مهددًا:

- هل تعلم كم عملية إجهاض تجرى في الدولة كل عام؟

أخرجَ السيد «براجاك» من حالته المزاجية، أولًا لأنه ليست لديه فكرة عن هذه الأمور. ثانيًا لأنه يخاف أن يدخل معه في حديث يُنسيه ما كان يُسرع من أجله منذ عشر دقائق، بالإضافة إلى شعوره بضيق في التنفس. أزاح بسخافة هذه اليد الممتدة بالورقة وبشكل حاسم تقدم إلى الأمام. صرخ الشاب:

- إن أنت واحد منهم، أيها المجرم!

صاح الحشد:

- أيها المجرم!

صاح الشاب:

- كم شخصًا قتلت؟

استطرد الحشد:

- يا خادم الشيطان!

تابع الشاب:

- يا تابع الشيطان!

كرر الحشد:

- تابع الشيطان!

أكمل الشاب:

- عليك أن تخجل من نفسك!

كرر الحشد:

- عليك أن تخجل من نفسك!

- فلتنتظر حتى تعترف بما جنته يداك أمام الله.

- عندها سوف ترى!

- سيكون قد فات الأوان!

- فات!

وصل السيد «براجاك» إلى الرصيف. إذا لم يسرع سيجد أن السيد «دك» قد غادر لتناول الغداء. حاول السيد «براجاك» أن يمد في خطوته، لكنه أذى نفسه، تعثرت إحدى قدميه بحافة الرصيف والأخرى تعثرت بعصاه، كاد أن يسقط لولا أن شابة ترتدي قميصًا واسعًا وتنورة مُتسخة هبت لنجدته.

قال الشاب على الناحية الأخرى مُتذمرًا:

- دعيه يا آنسة. إنه شخص يبحث عن المتاعب.

نصحها الحشد:

- أنتِ تضيعين جهدكِ سدى!

استند السيد «براجاك» على منقذته وتنفس بصعوبة ممتنًا لها.

- هل تحتاج لمساعدة؟

هز السيد «براجاك» رأسه.

- هل أذيت نفسك؟

هز السيد «براجاك» رأسه.

- هل يجب أن أتصل بالإسعاف؟

هز السيد «براجاك» رأسه.

- هل أوصلك للمنزل؟

هز السيد «براجاك» رأسه وقال:

- لا شيء أيتها الشابة، كل ما في الأمر أنني فزعتُ قليلًا. شكرًا جزيلًا.

كان «فيكتور دك» قد ترك الأريكة منذ قليل وأخذ يفكر في الطعام الذي سيتناوله على الغداء. ربما العصيدة مع السجق، أو ربما العصيدة مع البيض المقلي، أو السجق فقط، أو البيض بالبصل. لكنه سيتوقف أولًا في الكنيسة، في تلك الساعة لن تكون هناك قدم واحدة بالكنيسة.

ومن الميدان، أسرع رجل طويل القامة، أحمر الوجه ذو مظهر أجنبي. كان يرتدي بنطلونًا بني اللون وقميصًا أحمر بأكمام قصيرة، يرتدي قبعة على رأسه، وعلى خصره محفظة صغيرة وعلى كتفه كاميرا. ثم سأل بالإنجليزية:

- هل تتحدث الإنجليزية؟

أجابه السيد «دك» بالألمانية:

- لا.

سأل الرجل سعيدًا:

- تتحدث الألمانية؟

- لا.

بدت خيبة الأمل واضحة في صوت الرجل:

- «أندي وارهول»، هل هو هنا؟ المتحف؟

قال «دك» مبتسمًا:

- إذا قابلت ألمانيًّا، سأسحقه مثل حشرة.

- عفوًا؟

وذكر «دك» مصدر الاقتباس:

- سجل «داليميل» التاريخي.

نطق الألماني كلمة «سِجل» بشكل مختلف تعني معتوهًا.

أربكت الترجمة المضللة الرجل الألماني. أشار إلى متحف «أندي وارهول» وقال بالألمانية:

- أرشيف البلدية؟

- لا، شرطة البلدية.

- الشرطة..

- نعم. عنيف. متوحش. قاتل.

نظر الألماني للحظات بتمعن إلى «دك» المبتسم ثم كرر بالألمانية بعد أن ارتاب في أمره:

- هل تتحدث الألمانية؟

فأجابه «دك» بالألمانية:

- لا.

ابتعد السائح مرتبكًا.

كانت الرائحة الكريهة لمقاطعة «كولونيا» الألمانية تنتشر على بعد ستة أمتار. قال «دك» في سره إنها سوف تنتشر في المكان كله، وكأن المكان ليس به ما يكفي من الحمقى المحليين.

عندما وصل السيد «براجاك» إلى المكان، كانت الأريكة فارغة. شعر للحظات بالإحباط، وقف، تردد إذا ما كان عليه أن يستريح للحظات. في النهاية، أبعد الفكرة من رأسه وخرج متثاقلًا. كما أنه نسي في الأساس الموضوع الذي كان سيتحدث عنه مع السيد «دك». شيء ما عن جبل، ولكن ما هو؟ ربما يتذكر بالمنزل.

جلس «دك» في الكنيسة بالصف الأول وهو يتلذذ بالظل. لكن ذلك لم يدم طويلًا، فبعد لحظات، بدأت مفاصله تؤلمه، لكنه سيتحمل بضع دقائق.

جلس تحت منبر الوعظ، على طاولة منخفضة، كان يوجد تمثال للعذراء مريم تقريبًا بالحجم الطبيعي. تضم يديها على صدرها، خافضة رأسها وهي تبتسم بسعادة. وعلى يمينها، يقف يوسف بتعبير غير مفهوم. كان الملاط متناثرًا وعلى وجهه نقور والقليل منها على ذقنه. بين يوسف ومريم مهد فارغ. يبدو أن أحدهم سرق يسوع الصغير. أو أنه هرب عندما سنحت له الفرصة.

بُنيت هذه الكنيسة تقديسًا لروح القديسة «لوسي»، حامية العميان وصانعي السكاكين. كانت تقف في المحراب جهة اليمين. تمسك في إحدى يديها مصباحًا وفي الأخرى طبقًا به عينين. وهذا ألهم «دك» قبل بعض الوقت بخدعة جديدة. أخرج من جيبه كيس «بلي»، اشتراه صباحًا من متجر الألعاب، انحنى وأفرغها على الأرضية. انطلقت الكرات على الأرضية غير المتساوية، كل واحدة في جهة مختلفة. نهض «دك» واتجه إلى الخارج بكل حذر حتى لا يخطو على إحداها ويكسر عظمه.

عند المخرج، تقف القديسة «مارثا» حاملة مقشة. فقال «دك» متأملًا:

- فلتكنسيها أيتها العاهرة المقدسة.

وبسعادة وصل إلى البوابة، هبط السلم واتجه نحو المنزل. وهو يشعر في نفسه بسلام داخلي.

(39)

قال النقيب «فالاشك»:

- اسمع، فلنختصر الأمر. هل تعترف بالجريمة؟

- أي جريمة؟

- هل اغتصبتها، نعم أم لا؟

- يمكننا أن نقول نعم، لكن قليلًا.

- كيف قليلًا؟

- استمر ذلك مدة قصيرة جدًا، تقريبًا لم أقم بشيء.

- إذن تعترف؟

- يمكننا أن نقول ذلك ولكن بتحفظ.

- هذا أمر تسويه مع المحكمة.

- أكتب أنني سأخبرهم بذلك. لكن لا تذكر شيئًا عن هذا الأمر. لكنني أريد أن تكتب هذا في الاعتراف. «مع التحفظ». وإلا لن أوقع عليه. وقعوا أنتم عليه. مثلما حدث في ميونخ عام 1938. كانوا يتحدثون عنا ولكن دون أن نكون متواجدين. الأمر عندي سيان.

حدث هذا بعد ظهر الثلاثاء. حلَّ «مارتين فلاشاك» محل «سفيراك» الذي طلب إجازة لثلاثة أيام. اتصل «لبيدا» صباحًا وقال إنه ليس على ما يرام وسيقضي بقية اليوم بالمنزل. استمر الطقس الحار، ولم تكن هناك مؤشرات على أن هذه الموجة ستنتهي. أوصى وزير الصحة أنه على كِبار السن شُرب الكثير من الماء حتى وإن لم يشعروا بالعطش.

(40)

في اليوم التالي، سقط السيد «براجاك» من النافذة. كان جسده ممددًا على الرصيف، ولم يُصب أحد من المارة بأذى. تجمع الناس حول الجسد الذي فارقته الحياة.

- آه!

- أووه!

- معذرة!

- تنحوا!

- معذرة!

- ها!

- يا إلهي!

- من هذا؟

- هل تعرفونه؟

- شخص أحمق! كان يُمكن أن يقتل أحد المارة!

- أي أحمق؟ إنه السيد «براجاك!؟»

- ألم يكن بمقدوره القفز من النافذة ليلًا؟

- أبعدوا الأطفال! أبعدوا هؤلاء الأطفال!

- تمامًا كما كان يحدُث في الخمسينيات! بالتأكيد أرادوا طرده من منزله، المسكين!

- هذا ليس سببًا كي يقفز من النافذة في وضح النهار!

- اطلبوا سيارة الإسعاف!

- الشرطة!

- أي سيارة إسعاف؟ نحتاج إلى مجرفة!

- هل مع أحدكم موبايل؟

- أبعدوا هذا الكلب!

Contents

مكتبةTelegram Network 2020
(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)
(8)
(9)
(10)
(11)
(12)
(13)
(14)
(15)
(16)
(17)
(18)
(19)
(20)
(21)
(22)
(23)
(24)
(25)

(26)
(27)
(28)
(29)
(30)
(31)
(32)
(33)
(34)
(35)
(36)
(37)
(38)
(39)
(40)

Notes

[←1] حركات لعبة الشطرنج.

[←2]

ألكسندر دوبتشك: سياسي ورجل دولة وزعيم الحزب الشيوعي ورئيس البرلمان التشيكوسلوفاكي ومفجر حركة ربيع براج الإصلاحية.